طلائع الفكر
الاشتراكي في مصر

ثلاثة لبنانيين في القاهرة

شبلي شميل
فرح انطون
رفيق جبّور

الدكتور رفعت السعيد

دار الطليعة - بيروت

A
320.531
S 132 th

الدكتور رفعت السعيد

ثلاثة لبنانيين في القاهرة

شبلي شميل فرح انطون رفيق جبور

B. U. C. LIBRARY
29 NOV 1973
RECEIVED

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

حقوق الطبع محفوظة لدار الطليعة

بيروت - ص.ب ١٨١٣

الطبعة الاولى

ايلول (سبتمبر) ١٩٧٣

الى ابنتي

لتدرك حتى وهي صغيرة أن ثمة أفكارا جليلة تستحق أن يضحي الانسان من أجلها بكل شيء حتى الحياة .

ليس هذا الكتاب بداية ٠٠ كما أنه ليس نهاية ٠

فهو ليس الخطوة الاولى ٠٠ ثمة خطى أخرى سبقته في محاولات لتقديم طلائع الفكر الاشتراكي في مصر ٠٠ وثمة طابور طويل لا يزال ينتظر ٠٠ من مفكرين ومناضلين شجعان وهبوا حياتهم دفاعا عن الاشتراكية ٠٠ وما زالت ذكراهم وكتاباتهم مطوية خلف تجاهل متعمد نسجه مؤرخو البرجوازية المصرية ، الذين رأوا تاريخ مصر كله بعين واحدة ، عين طبقتهم ٠

ومن هذه السلسلة صدر كتابان الاول عن عصام الدين حفني ناصف ، والثاني عن نقولا الحداد * ٠٠ وفي مقدمة الكتاب الثاني قلت « اني أعتبر كلماتي هذه صيحة استنفار ٠٠ فتراثنا الفكري والثوري الذي أهال عليه مؤرخو البرجوازية ستارا كثيفا من النسيان ، وكتابنا ومفكرونا الاشتراكيون ، والطلائع المبدعة للفكر الاشتراكي في مصر ٠٠

* صدرا عن دار الثقافة الجديدة ـ القاهرة ٠

هؤلاء الرجال الشجعان الذين رددوا كلمة الاشتراكية في شجاعة نادرة ودافعوا عنها ببسالة في وجه طغيان طبقي عنيف ، هؤلاء الرجال بحاجة الى من يقدمهم الى أجيالنا الحاضرة التي تكاد لا تسمع ولا تعرف عنهم شيئا » ٠

ويمضي عامان ٠٠ وأتقدم بالكتاب الثالث من السلسلة ٠٠ ولا زلت لا أجد غير نفس الكلمات ، فأنا لم أزل بحاجة الى « صيحة استنفار » ٠

فالجهد الفردي قاصر مهما بذل صاحبه ، عاجز عن أن يلم بكل شيء ٠٠ وطابور المنتظرين من مفكري الاشتراكية طويل ٠٠ طويل ، بحاجة لدراسته وتقديمه واستخلاص الدروس منه الى جهد جماعي ٠٠

ويمضي عامان ٠٠ وأجد الشجاعة في نفسي كي أخطو خطوة ثالثة فأتقدم للقراء بسيرة ثلاثة مناضلين اشتراكيين عاشوا واقع النضال المصري وأسهموا فيه اسهاما خصبا ٠

لبنانيون ثلاثة قدموا الى مصر ٠٠ وخاضوا معركتهم دفاعا عن الاشتراكية على أرض مصر ٠

شبلي شميل فيلسوف من **كفر شمعا** وهب حياته دفاعا عن العلم ونظرية التطور والمنهج العلمي وحرية الفكر ٠٠ والاشتراكية ٠

فرح أنطون ابن تاجر من **طرابلس** ، يذوب ذوبا في حب الديمقراطية والعلم والتقدم ، ويصوغ كل نسمات حياته كلمات يدعو بها للحقيقة ٠٠ والشعب ٠٠ والاشتراكية ٠

رفيق جبور صحفي من **جبل لبنان** ٠٠ عمل بالصحافة مثل الآخرين ، ولكنه لم يكتف بالكلمات فمارس الصراع الطبقي حتى مداه ، مدافعا عن الاشتراكية وحقوق العمال والفلاحين المصريين ٠٠ وخاض المعركة قائدا من قواد جيشهم

العظيم ، جيش البروليتاريا المصرية · ولم يكن الاختيار جزافا ·

ولم يكن مجرد تجميع لثلاثة أسماء لبنانية ·

بل كان محاولة لتأمل دور المفكرين اللبنانيين في تكوين وتطوير الفكر الاشتراكي في مصر عبر مراحل ثلاث ··

·· شبلي شميل ، خاض معركته قبيل الاحتلال الانجليزي وبعده ، وركز صراعه حول العلم والمنهج العلمي·· وطبعا الاشتراكية ، كطريق لمجابهة نكسة ما بعد الاحتلال ··

·· وفرح أنطون ، توهج كالشهاب في خضم تبلور المعركة الوطنية المصرية ضد الاحتلال الانجليزي ، فأسهم مع الحزب الوطني ثم مع الوفد في معركتهما وهاجم الانجليز ودافع عن الشعب وحريته واستقلاله ، ·· وأيضا الاشتراكية كطريق لتحقيق الاستقلال الوطني ··

·· ورفيق جبور ، بطل معركة ما بعد الاستقلال ، عندما وثبت البرجوازية الى السلطة ، أو « وضعت » فيها بعد ثورة كان وقودها الاساسي العمال والفلاحين ، وتلفت الكادحون المصريون ليروا أن كل ثمار الاستقلال قد ذهبت الى البرجوازيين وكبار الملاك ، والتهب صراع طبقي مرير ، نبت في خضمه الحزب الشيوعي المصري ، وكان رفيق جبور واحدا من قادته ، وهب حياته دفاعا عن العمال والفلاحين ، وعن حزبهم ، وعن أداته ، النظرية الاشتراكية العلمية كسبيل لخلق مجتمع مصري جديد تسوده سلطة العمال والفلاحين ·

وثمة مفكرون لبنانيون آخرون ، لعبوا دورا قل أو كثر في نفس المعركة ، لكنني تعمدت هذا الاختيار ، لانه يمثل مراحل هامة في تاريخ مصر ، والنضال المصري ·

والجميع يعترفون بفضل المفكر اللبناني التقدمي على

نهضة الفكر المصري ، فلنحاول اذن أن نتأمل مدى هذا التأثير على كل مرحلة من مراحل انهاض هذا الفكر في مواكبته لتطور النضال المصري ذاته ·

واختمرت في ذهني هذه الفكرة ·· واخترت الرجال الثلاثة ، وبدأت المطاردة بحثا عن المعلومات والمصادر والكتابات ··

وكانت مجرد محاولة ، لست أريد أن أصور مدى ما تطلبته من جهد ، فان أي جهد – في هذا الصدد – هو بالضرورة أقل مما هو مطلوب ، وهو أيضا – وبالضرورة – أقل مما يجب أن نقوم به ··

لكنها – وعلى أية حال – مجرد محاولة ·

وبعد ، فهذا هو الكتاب الثالث من سلسلة طلائع الفكر الاشتراكي في مصر ، أقدمه غير واجد من الكلمات سوى الكلمات نفسها التي قدمت بها الكتابين الاول والثاني ·· صيحة استنفار أخرى فالجهد الفردي يستحيل أن ينجز كل هذه المهمة ··

وطابور المنتظرين طويل ·· طويل

القاهرة ·· ١٩٧١
هلسنكي ·· ١٩٧٢
القاهرة ·· ١٩٧٣

- ١ -

شبلي شميل

طبيب فيلسوف من كفر شمعا ..
يدعو الى الاشتراكية .

الحقيقة أن تقال لا أن تعلم

★

الاشتراكية نتيجة لازمة لمقدمات ثابتة لا بد من الوصول اليها ولو بعد تذبذب طويل .

★

الاشتراكية كالاجتماع نفسه ذات نواميس طبيعية تدعو اليها .

شبلي شميل

« في عام ١٩١١ كنت اذ ذاك مكبا على الفلسفة القديمة أنهل من موارد العرب بأقصى ما تصل اليه استطاعتي وحينذاك وقعت في يدي نسخة من كتاب دكتور شميل «فلسفة النشوء والارتقاء » فأحدثت قراءتها في ذهني من الانقلاب

والاثر ما تعجز الكلمات واللغة عن التعبير عنه أو وصفه . »

اسماعيل مظهر

***

« وفي ذلك الحين بدأ شميل في نشر سلسلة مقالاته حول العلم والمجتمع ، تلك المقالات التي أثارت اهتماما كبيرا والتي أثرت تأثيرا بالغا في عقول معاصريه . »

جمال أحمد

***

« لا يسعني أن أمر على ذكر حكيم شرقي انخرط مع من ذكرت من العلماء ممن أيدوا مذهب داروين وأخذوا بناصره وهجموا على مألوف الشرقين بفواءد ذلك المذهب من حيث الجهر بمعتقد الانسان انه اعتقاد صحيح ولو خالف الجمهور .. فالدكتور شميل له في نشر مذهب داروين وتحمله أعباء المفكرين له عن غير علم وتحقيق ما يعد للشميل فضلا .. ولكنني لا أرى الدكتور شميل قد تخلص في جرأته الادبية وبعض رسوخه في الفلسفة من وصمة التقليد الاعمى لعلماء الغرب ، وبمعنى أوضح أنه أراد أن ينتصر لداروين وأن ينشر مذهبه ـ رغم أهل الاديان وفي ذات الوقت عارض أستاذه وصاحب المذهب المنقاد له ..

وفيما عدا ذلك فاني أقدر للشميل قدره في دقة بحثه وتحقيقه وجرأته على بث ما يعتقده من الحكمة وعدم تهيبه من سخط المجموع لما يجهله من حقائق العلم » .

جمال الدين الافغاني

لقد شهد تاريخ مصر كثيرا من المعارك الفكرية بين دعاة العلم ودعاة التخلف ..

وفي سنة ١٨٧٦ نشبت واحدة من هذه المعارك الضارية ، بدأت بمقال نشر في جريدة المقتطف حول « دوران الارض » أكد فيه كاتبه (يعقوب صروف) أن موضوع دوران الارض حول نفسها وحول الشمس « صار أشهر من نار على علم وأوضح من الصبح لذي عينين وتحققت صحته لكل ذي عقل سليم يطالع ويفهم .. »

وتنفجر ضجة عنيفة يقودها بعض رجال الدين مؤكدين مخالفة هذا القول لتعاليم الكتب المنزلة ، ويتزعم هذه الضجة أرشمندريت الكرسي الانطاكي ببيروت والاب جبريل جبارة الذي كتب مقالا ساق فيه عديدا من الادلة الدينية التي تؤكد ثبوت الارض وعدم دورانها .

ويتقدم أنصار العلم محاولين الدفاع عن مراكزهم ويتزعم هذا الدفاع مصطفى رياض باشا وعبد الله فكري باشا وعبد الله أبو السعود ليدافعوا عن العلم الحديث والعلوم الطبيعية مؤكدين عدم مخالفتها للدين ..

وقد اتفقت هذه الاطراف « على احكام المناورة لتأييد قضية الموافقة بين العلم والدين حتى لا يتعطل ـ بحركة المحافظين ـ سير العلم الطبيعي وتقدمه في البلاد العربية التي كانت ولا تزال في أشد الحاجة اليه »(١).

.. في مثل هذا الجو الذي يشدد فيه المحافظون الهجوم ويلجأ فيه أنصار العلم الحديث الى المناورة والتحفظ يصل شبلي شميل الى القاهرة ليفجر الموقف كله بصيحات مدوية شجاعة .. بل ومتطرفة في عنفها .

فشميل يحكمه مبدأ أساسي « الحقيقة أن تقال لا أن تعلم » .

فليس يكفي أن تعلم الحقيقة لكن يتعين عليك أن تقولها .. مهما كلفك ذلك من تضحية .

وهو يوجه حديثه الى قرائه صريحا بغير تغليف واضحا ومباشرا بغير مناورة ..

وعلى غلاف كتابه الاول « فلسفة النشوء والارتقاء » يوجه حديثه الى القارىء قائلا « طالع هذا الكتاب بكل تمعن ، ولا تطالعه الا بعد أن تطلق نفسك من أسر الاغراض لئلا تغم عليك نفسك وأنت واقف تطل على العالم من شرفة عقلك تتلمس الحقيقة من وراء ستارها » .

وفي مكان آخر يتحدث الى قارئه فيقول « اليك أكتب أيها القارىء العاقل ، العاقل المتأمل ، ولا أطلب منك علما واسعا وفلسفة بديعة وحكمة بليغة ، بل أطلب منك عقلا حلت قيوده وتفتحت منافذه وأقام التفكير مقام الاعتقاد ،

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع محمد عبد الغني حسن في كتابه عبد الله فكري ـ سلسلة اعلام العرب ص ٩٩ وما بعدها .

والبحث مقام المقرر ، يقدر مستنتجات العلم قدرها ، ولا يبخس مستنبطات العقل حقها »(١) .

الى هذا النوع من القراء وجه شميل دفاعه الشجاع عن العلم والعقل .. لكن من هو شميل ؟

ابن واحد من أعيان الريف اللبناني ، ولد في قرية كفر شمعا في أسرة مثقفة فأخوه الاكبر وليم كان مدرسا مولعا بالفلسفة والعلوم الطبيعية ، وأخوه الثاني أمين كان محاميا.

ودرس شميل الطب في كلية البروتستانت في سوريا وتخرج طبيبا في عام ١٨٧١ .. وفي عام ١٨٧٥ توجه الى أوروبا حيث قضى عاما كاملا يدرس نظرية التطور وآخر ما وصلت اليه العلوم الطبيعية وعلم التشريح

.. وبعد ذلك جاء مصر ، ليمارس الطب ويصدر مجلة اسمها « الشفاء » .

لكن شميل لم يكن مجرد طبيب فقد دخل معركة الدفاع عن العلم واهبا اياها الجزء الاكبر من وقته وجهده وتوالت مقالاته في عشرات من الصحف لتناقش مسائل شتى في الفلسفة والطبيعة والشعر والسياسة والقانون وحقوق المرأة والاجتماع وقضية الحرب والسلام .. وموضوعات أخرى عديدة ..

لكن المعركة الكبرى تتفجر عندما يصدر شميل كتاب « فلسفة النشوء والارتقاء » وهو ترجمة لكتاب بخنر Buchner « ستة محاضرات حول نظرية داروين » (٢) .

وتثور الضجة عنيفة ويحجم حتى أخلص أصدقاء

(١) مجلة البصير ١٨٩٨ . مقال «القضاء على القضاء» .
(٢) نشر بالالمانية عام ١٨٦٨ .

شميل عن مساندته ..

ويعلق شميل على هذه الضجة قائلا :

« لقد أحدث نشر هذا الكتاب يومئذ لغطا عظيما مع أنه لم يطبع منه الا خمسمائة نسخة لم تنفذ الا بعد خمس عشرة سنة ـ لغطا قليله من الخاصة المعدودة فقاموا ينفونه كله أو بعضه كل على قدر علمه أو حسب هواه ، وكثيره من العامة الذين أكثروا من الجلبة عن سماع لا عن مطالعة لانهم سمعوا أن فيه مساسا بأعز شيء لديهم هم عليه حريصون عن ارث وعادة لا عن تدبر وروية »(١) .

وقد واجه شميل الاعصار وحده حتى أصدقاءه ومؤيديه أحجموا عن مناصرته ، وهو يتحدث عنهم قائلا :

« عندما طالبتهم أن يؤيدوني بكتاباتهم في الجرائد خدمة لامتهم أحجموا ، فعلمت أن الحرية فيهم لم تتجاوز حد الفكر ولم تصل بهم الى القول » .

.. ويواصل شميل المعركة . وبعد عام واحد ينشر بحثا مستفيضا في ثمانين صفحة بعنوان « الحقيقة »(٢) يرد فيه على كل مهاجميه مستخدما كل علمه وشجاعته في محاولة اثبات صحة أفكاره ..

لكن خصومه لا يسكتون ويشنون عليه حملات قاسية ويشترك في الحملة عليه أعلام كبار وزعماء عظام مثل الافغاني الذي هاجم نظرية النشوء والارتقاء بعنف قائلا أن « داروين قد ألف كتابا في بيان أن الانسان كان قردا ثم عرض له

(١) مجموعة المقتطف عام ١٨٨٥ .
(٢) فلسفة النشوء والارتقاء . مقدمة الطبعة الثانية مطبعة المقتطف سنة ١٩١٠ . صفحة ج .

· التنقيح والتهذيب في صورته بالتدريج على تتالي القرون المتطاولة وبتأثير الفواعل الطبيعية الخارجية وعلى زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور وأن ينقلب الفيل برغوتا كذلك » (١) ·

وغير الافغاني كثيرون ·· لكن شميل لم يتراجع وكتب عشرات المقالات في عديد من الصحف والمجلات (مصر الفتاة ، سركيس ، المقتطف ، المقطم ، المؤيد ، البصير المشير ، الاخبار ، الوطن ، الهلال ، الجريدة ·· الخ) مكونا من ذلك كله ثروة فكرية هامة جمع شميل منها ٦٩ مقالا في الجزء الثاني من مجموعته واعدا قراءه بنشر الجزء الثالث ، لكنه لم يصدر ·

·· وهذه هي الثروة الفكرية التي سنحاول في هذه الدراسة تقييمها وابراز جوانبها الايجابية والسلبية في ظروف المجتمع المصري خاصة والعربي عامة في ذلك الحين ··

لكننا قبل أن نبدأ يتعين علينا أن نعلن للقارىء أن شميل كان في أغلب كتاباته رجلا حاسما ، يعلن رأيه قاطعا بغير تردد، مستقيما بغير مناورة ·

كان يؤمن بالعلم ، وبالعلوم الطبيعية بالذات ، ويطمح الى أن يرى كل شيء في المجتمع ، يسير دقيقا في دقة القوانين الطبيعية ، حاسما في المعادلات الرياضية ·

ولقد أثر ذلك كثيرا على كتاباته ، فهو بالرغم من شاعريته الرقيقة ، وأسلوبه الادبي الرصين يجنح أحيانا الى محاولة الكتابة بأسلوب القوانين العلمية ، أو المعادلات

(١) جمال الدين الافغاني ـ الرد على الدهريين· ترجمة محمد عبده وعارف ابي تراب · الطبعة الرابعة سنة ١٩١٤ ·

الرياضية معلنا في صخب سخطه على الشعر وعلى علوم الكلام وعلى الفلسفة والادب والادباء والشعراء والفلاسفة جميعا ··

لكنه شاعر بالرغم من ذلك ، ومن هنا كان الصراع واضحا في كل ما يكتب ، أسلوبان مختلفان بل ومتناقضان يمتزجان أحيانا ويتنافران في أحيان أخرى فشميل في كثير من كتاباته يهاجم الشعر والشعراء واذا به في نفس المقال يصوغ هجومه شعرا ··

ويهاجم المحسنات والسجع لكنه يستخدمها ··

انه التناقض بين الاديب المطبوع والفنان الملهم الذي ثبت في داخله عالم يؤمن بالعلم وبالعلم فقط ويرى أن أي انفلات من مجال التعبير العلمي هو انفلات نحو الضياع·· فيقاوم ·· يقاوم الاديب والشاعر والفيلسوف في داخله فلا يستطيع ·

ولنحاول الآن أن نتعرف على تلك الشخصية البالغة التعقيد ·

الفيلسوف والشاعر والاديب الذي كرس حياته مستخدما كل ما وعاه من فلسفة وشعر وأدب للهجوم على الفلسفة والشعر والادب ··

لكننا نخطىء اذا تخيلنا أن هذه هي الصورة الوحيدة لشميل ، فهناك أيضا شميل العالم والمناضل ، والمفكر الاجتماعي ، ورافع لواء الاشتراكية في زمن عز فيه الحديث عنها ··

وهكذا ينشأ تناقض خطير آخر ··

فشميل ـ بغير شك ـ واحد من رواد الفكر التقدمي والتطوير الاجتماعي والدعوة الى المبادىء الاشتراكية ، لكنه وفي نفس الوقت يتخذ ـ كغيره من المفكرين الشوام ـ

موقف السكوت عن الاحتلال الانجليزي بها وربما اتخذ منه في بعض الاحيان موقف الرضى ..

انه يهاجم المستبدين الاتراك ، ويدين الخديوي المتسلط ويتحدث عن الحرية للشعب ويرفض الاستغلال والاستبداد في شتى صوره لكنه يصف كرومر بأنه مصلح .. والاحتلال الانجليزي بأنه وليد ظروف موضوعية ..

وباختصار .. لقد أردت بهذا التقديم أن أقف بالقارىء عند نفس الوقفات التي حيرتني طويلا وأنا أستعد لدراسة فكر شميل راغبا في أن أقدم له منذ البداية الصورة الكاملة.. وبكل تعقداتها مؤملا أن نبذل سويا بعضا من الجهد لتفهم أبعادها الحقيقية .

وأخيرا فان الحديث عن شميل ليس مسألة سهلة ، لكننا سنحاول .. يشجعنا ويستحثنا أننا لا نريد لهذا الفكر العبقري أن يطويه النسيان ..

نظرية النشوء والارتقاء

منذ أن كان طالبا بدأ شميل علاقته بنظرية النشوء والارتقاء .. بل وحتى قبل أن يقرأ داروين أو يتأثر به ..

فرسالته التي حصل بها على شهادة الطب من كلية البروتستانت كانت حول « تأثر الانسان والحيوان بالمناخ والطبيعة والبيئة » .

وأعتقد أن شميل هو أول من وجد الجرأة من المفكرين العرب ليعلن وقوفه الى جانب نظرية داروين .. وهو يقول في مقدمة كتابه « ولما قمت أبث مبادىء هذا المذهب .. لم يكن له أتباع ولا مؤلفات في اللغة العربية بل كان أنصاره حتى في أوروبا نفسها لا يتجاوزون عدد الاصابع » .

وقد دخل شميل الى الميدان شاهرا سيفه معلنا آرائه بجرأة .. ومعلنا في نفس الوقت أنه غير عابىء بما سيقوله الناس عنه .. « لست أخشى تخطئة الناس لي اذا كنت أعرفني مصيبا ولا يسرني تصويبهم لي اذا كنت أعرفني مخطئا .. »

وشميل رجل مناضل ، لا يقول كلمته ويمشي ، بل يتربص متحفزا لدحض أي هجوم عليها .

وفي البداية أصدر مقالات بخنر الست حول نظرية داروين (١) .

فثارت ثائرة القوم جميعا .. هؤلاء الذين كانوا لا يزالون غارقين في مناقشة « هل الارض كروية .. وهل هي تدور أم لا ؟ » .. وهؤلاء الذين كانوا يؤيدون التقدمويدعون الى العلوم الطبيعية لكنهم يريدون التدرج بالافكار .. وحتى هؤلاء الدعاة التقدميين أمثال الافغاني هاجموه في البداية أيضا ..

ووقف الرجل وحيدا يواجه الاعصار .. لكنه استمر في التحدي .

فقد كان يؤمن ايمانا جازما أن الطريق الوحيد لتحرير العرب هو تخليصهم من اسار قيود الماضي ..

لقد كان يدرك أن العلوم الطبيعية والايمان بها هو السبيل للتقدم .

وكان يدرك فوق كل ذلك أنه لا بد لانسان ما أن يبدأ وبعدها سيصبح الامر سهلا ..

لقد أراد شميل أن يحدث هزة في الافكار القديمة ، أن يثير ضجة ، وعندما علا ضجيج القوم بالرفض والهجوم عليه، أعلن ارتياحه فقد حقق هدفه وقال :

« فهذه الرجة التي حصلت اليوم هي المقصودة مني في ذلك الحين لايقاظ الافكار من نومها العميق ، والحركة مهما كانت

---

1 — Sechs vorlesungen Uber Die Darwinsche theoris. (1868) .

خير من السكون » (١) .

وهو يقرر صراحة أنه لم يكن يقصد كسب الناس الى صفه بهذه السرعة .. « فما كنت أطمع بأن أرد الناس الى في هذا الزمن القصير ، وأنا لا أجهل ما يحول دون ذلك من الصعوبات بل أني قصدت مباغتة الافكار للفتها الى غير مألوفها . وان كنت لا أجهل أن القاء حجر في المستنقعات الراكدة لا يقلق الضفادع المطمئنة .. الا أني لا أجهل أيضا فعل الخميز المخمر فان أقل ما يعلق بالعقول حينئذ من أثر الافكار المخالفة ينمو فيها غالبا بسرعة الاختمار نفسه خصوصا اذا صادف استعدادا في النفوس كامنا فيها لكثرة البواعث الضاغطة عليه فيكون مثل هذا التنبيه له بمثابة الشرارة في اثارة كامن القوى المتجمعة (٢) .

وهو يقرر صراحة أن الايمان بهذا المذهب « لا بد له من تغيير الانسان تغييرا جوهريا بحيث يتجدد كليا كأنه وجد وجودا جديدا فتتغير أخلاقه وفلسفته وسياسته وشرائعه وحكوماته وغير ذلك مما يتعلق بهيئته الاجتماعية »(٣) .

والشيء الذي يجب الاهتمام به والتركيز عليه أن شميل تمسك بنظرية داروين لا لمجرد الدفاع عن موقف صحيح من الناحية العلمية وانما سبيلا للدفاع عن التقدم بشكل عام ..

فشميل يدافع عن فكرة التطور في ذاتها ويقدم في سرد شيق قصة تطور الكون .. وآفاق مستقبل تطوره ..

وهو يستخدمها كسبيل لزعزعة سلطان الافكار القديمة

---

(١) فلسفة النشوء والارتقاء . صفحة د .

(٢) المرجع السابق . ص ٢٨ .

(٣) المرجع السابق . ص ٢٤١ .

على العقول مستهدفا تحرير العقل من اسار الماضي ..

وهو يستخدمها دفاعا عن منهج فلسفي هو الايمان بمادية الكون فهو يقرر أن « القول بمذهب النشوء يستلزم بالضرورة القول بمادية الكون »(١) .

وهو يقول أيضا أن « غرضي من هذا البحث ـ على هذه الصورة ـ انما كان لاقرار الفلسفة المادية على أساس علمي متين لازالة الوهم العالق بأذهان كثيرين في تلك الايام من أنها فلسفة يرمي أصحابها الى أغراض سافلة ويحاول خصومها تمكينها في أذهان العامة لتنفيرهم منها وهي خطة دنيئة في العلم »(٢) .

.. بل هو يستخدمها سبيلا للنضال السياسي والاجتماعي ذلك أنه « يستحيل قيام العدل بشريعة ثابتة غير متغيرة »(٣) .

.. ومن الحديث عن العدل يتطرق شميل في مقدمة الطبعة الاولى لترجمته لمقالات بخنر عن النشوء والارتقاء .. الى الهجوم على المستبدين والملوك ويرفع صوته عاليا « العدل كل العدل في الانتقام من الظالمين »(٤) .

.. وهكذا لم تكن « نظرية تطوير النشوء والارتقاء » سوى طريق لاحداث رجة فكرية في المجتمع يمكن من خلالها مناقشة أصل الكون .. وماديته وتطور المجتمعات والقوانين التي تحكمها .. والاطاحة بالمستبدين .. وهكذا يتحول العلم الى سياسة مباشرة . ولعل هذا هو السبب في ذلك

---

(١) المرجع السابق ص ١٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٧ .
(٤) المرجع السابق ص ٥٩ .

الهجوم العنيف الذي تعرض له شميل .

وفكرة شميل عن التطور ليست فكرة أوروبية محضة فهو لا ينكر أنه قد استقى معظم نظريته من داروين وبخنر لكنه أيضا استند الى الماديين العرب وفي طليعتهم أبي العلاء المعري ..

وفي كل كتابات شميل عن فكرة التطور نلمح أثر أبي العلاء ونقرأ أبياتا من شعره .. بل أنه يصدر مقدمة الطبعة الاولى من ترجمته لبخنر ببيت أبي العلاء الشهير :

يدفن بعضنا بعضا ويمشي   أواخرنا على هام الاوائل..

كذلك تأثر شميل بفكر ابن خلدون عن التطور الاجتماعي وقد لجأ اليه كثيرا يستمد من كلماته العون في الرد على مهاجميه ..

وشميل يقدم بخنر لقراء العربية لكنه لا يسلم بكل ما يقوله بل أنه يهاجمه في بعض المواقع هجوما عنيفا . ان بخنر « ومع أنه من غلاة الماديين المعاصرين الا انه لم يستطع أن ينجو من مفعول تربية الاحلام الخالية التي مرت .. لان كلامه هذا شعري لا معنى له .. لقد استهوته المعاني الشعرية وألفاظها الفارغة »(١) .

وفي مكان آخر يقول بخنر « ان أوروبا بكل مجدها وعظمة تمدنها ستسقط يوما ما » .. ويعلق شميل على هذه الكلمات ساخرا « ان بخنر هنا قد نسي قياسه الصحيح وهجر ماديته وعاد الى نغمته الشعرية الفارغة »(٢) .

كذلك تجدر الاشارة الى أن شميل عندما دافع عن

---

(١) المرجع السابق حاشية ص ١٥٨ .
(٢) المرجع السابق حاشية ص ١٦٧ .

الداروني وبشر بها كان بالغ الحذر في التفريق بينها وبين محاولات « شوبنهور » و « نيتشه » و « مشو » في الاستناد الى نظرية داروين عند ترويجهم لفكرة « البقاء للاصلح لا بالانتخاب الطبيعي وانما بالانتخاب الصناعي أيضا » .

وأكد شميل ٠٠ ان هذه الدعوة التي يبشر بها هؤلاء الفلاسفة الثلاثة « الحالمون القانطون » كما اسماهم هو ، هذه الدعوة « وان كانت تستند الى مذهب داروين الا أنها ناقصة في جزئياتها ٠٠ » ، وهي ليست سوى « حلما قاسيا لا حقيقة علمية ويا ليته حلم لمصلحة المجتمع ولكنه حلم لو صح لسار بالمجتمع القهقري » (١) .

ومن ذلك كله يتضح أن شميل لم يكن مجرد ناقل أو مترجم بل كان صاحب فكرة متميزة الى حد ما ٠٠ يستند فيها أساسا الى داروين والى الفلاسفة الالمان هيجل وبخنر ٠٠ ويستند ايضا الى الفلاسفة العرب ابي العلاء ٠٠ وابن خلدون وغيرهما ٠٠

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٧ .

الموقف الفلسفي

مادية الكون .. ووحدة الطبيعة

لقد كان موقف شميل من نظرية النشوء والارتقاء موقفا فلسفيا في اساسه ٠٠ لا يستهدف مجرد البحث في أصل الانسان ٠٠ وانما البحث في أصل الطبيعة والكون ٠٠ وهو يقول في الصفحة الاولى من مقدمة كتابه أنه لم يسمه « مذهب داروين » وانما « فلسفة النشوء والارتقاء » وذلك « لاني لم أقتصر على النظر التقريري البسيط من حيث نشوء الاحياء وتسلسلها بعضها من بعض ، بل اطلقت نظرية النشوء والارتقاء على الطبيعة كلها من جماد ونبات وحيوان ، من حيث أصلها وتحولها ونسبتها بعضها الى بعض مبينا أن هذا الكل المشهود مترابط ترابطا لا ينفك في كل صوره وأفعاله سواء في الطبيعة الصامتة أو في الاحياء النامية أو في الحيوان الاعجم أو الانسان .

موضحا أن القوى الفاعلة في كل ذلك كالمواد الداخلة فيه من أصل طبيعي واحد متحول الى ما لا حد ، بحيث أن الافعال الظاهرة في أعلى سلم هذا التحول كما نشاهدها اليوم

ليست الا تلك الافعال البسيطة كامنة في أدنى هذا السلم متدرجة فيه وهي لا تنتظر حتى تظهر بأسمى مظاهرها ارتقاء، وأعظمها شدة الا توفر شرائط معلومة لو فقدتها بعد ذلك لعادت الى بسائطها عملا بناموس الاقتصاد الطبيعي الذي يقتضي أن كل شيء في الطبيعة منها وبها واليها »(١) ٠

هذا هو الفارق بين شميل وداروين ٠٠

وفوق ذلك فقد تأثر شميل كثيرا بقوانين الجدل وحاول ان يجد لها صياغات عربية ٠٠ فيقول :

« ان الجيد والرديء لا يوجدان مجردين في الوجود الكلي بل هما هكذا نسبيان بالنظر الى ظروف الزمان والمكان ٠٠ فلا يتأتى لنا والحالة هذه أن ننفي عن شيء صفة الموافقة والملاءمة نفيا مطلقا اذ أنها لم تتجرد عنه الا بالنظر الى حالة من الحالات أو موجود من الموجودات مع موافقته حالات اخرى وموجودات أخرى » (٢) ٠

ويقول أيضا « ان الطبيعة ليس فيها شيء ثابت ثبوتا مطلقا بل كل شيء فيها في حال المصير (أي حال التغيير) (٣)

ويقول « فالجسم الحي مركب من أعضاء مختلفة ولكل عضو من هذه الاعضاء عمل خاص ومشترك معا ٠٠ أعني أن العضو الواحد يعمل غير ما يعمل الاخر ويعمل للآخر في آن واحد ٠٠ وكذلك العمران فانه مركب ايضا من أعضاء مختلفة تعمل لغاية واحدة » (٤) ٠

---

(١) المرجع السابق صفحة أ ٠
(٢) المرجع السابق ص ٧٠
(٣) المرجع السابق ص ٣٩ ٠
(٤) ص ٣٦ ٠

ويقول « انالحياة كالازوت تتحول من حال الى حال مرتقية من أدنى الى أعلى الى أن تبلغ أرقى مقاماتها المعروفة ٠٠ الا ترىأن الفعل المسمى طبيعيا كالحرارة والكهربائية لا يغير الا أعم خصائص الاجسام فاذا زاد عن حد معلوم تحول الى الفعل المسمى كيماويا الذي يغير تركيبها » (١) ٠

ولقد كان شميل ماديا ، بل لعله أول دعاة المادية في الفكر العربي الحديث لكن ماديته كانت متأثرة الى حد كبير بالمدرسة الالمانية المادية التي نشأت عقب ثورة ١٨٤٨ وهي ما يمكن أن نسميه مدرسة المادية الفجة **ulgar Materialism** ، ذلك أنها تدافع عن مادية الكون دونما ربط للفكر المادي بالحقائق الفعلية في المجتمع ولا بضرورات التغيير الثوري على أسس علمية ٠

لكن شميل رغم تأثره الشديد بهذه المدرسة استطاع أن يتخطى هذه العقبة ـ الى حد ما ـ فقد استخدم أفكاره المادية دفاعا عن الجماهير وتأييدا لفكرة الثورة وان كان لم يستطع أن يحدد بوضوح معالم الثورة المطلوبة ولا القوانين المحركة لها ٠

كذلك دعى شميل الى فكرة « وحدة الطبيعة » Monism ولا شك أنه قد تأثر في ذلك بهيجل الذي كان عضوا بارزا في Monist's, League التي تأسست في المانيا في نهايةالقرن الثامن عشر لتدافع عن الفلسفة المادية في مواجهة الكنيسة والفلاسفة المثاليين ٠

---

(١) ص ٤١ ٠
(٢) راجع كامل عسلي «الاتجاهات التقدمية في الفكر العربيالحديث» وهي رسالة دكتوراه غير منشورة ٠ جامعة برلين الشرقية ٠

ويشرح شميل فكرته عن وحدة الطبيعة فيقول أن « الموحد في الطبيعة لا يسلم بشيء غريب عنها ، فاعل فيها أو مفعول عنها بل يعتبر أن كل الحوادث التي تحدث فيها منها وبها واليها متحولة بعضها عن بعض وراجعة بعضها الى بعض لا تستقر على حال ولا تثبت على صورة والبقاء غير متوفر فيها الا للكل وهذا المبدأ ينفي القول بالقوى المجردة والارواح المستقلة التي تعمد في جهلنا اليها ، لتفسير كل ما يبدو لنا غامضا ، ويردنا الى البحث عن أسباب هذا الغامض في الطبيعة نفسها »(١) .

وهو بذلك يرفض وجود قوة مستقلة عن المادة « فالقوة لا تكون حركة بدون شيء متحرك »(٢) .

ويقول في مكان آخر « لا يستطيع العقل أن يتصور المادة بلا قوة فاذا تصورنا مادة أولية مهما كانت فلا بد أن تكون دقائقها تحت فعل الجذب والدفع والا فانها تتلاشى من ذهننا ..

كذلك القول بقوة بلا مادة فارغ ولا أساس له ، واذا كان من المقرر أن القوة لا تقدر أن تظهر الا بالمادة فلا تكون القوة اذا سوى الصفة المتصلة بالمادة وكل صفات المادة كائنة فيها جوهريا الا أنها قد لا تظهر فتكون هاجعة فيها أي في حالة سكون . فالقوة في المادة تنبه تنبيها لا انها تحل فيها حلولا جديدا ..

ولاجل ذلك عرف العلماء القوة بأنها خاصة من خصائص المادة أو هي الحركة أو هي حالة من حالات المادة وأنه يستحيل

---

(١) فلسفة النشوء والارتقاء ص ٣١ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٢٩ .

البصر بلا عين أو الفكر بلا دماغ » (١) .

.. وبعد ذلك يتدرج شميل الى ما يريد أن يقول فيفجر الموقف كله بالوصول الى النتيجة التالية :

« ان الذين يقولون بوجود قوة أبدعت العالم من لا شيء لا يستندون في قولهم هذا الى شيء » (٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٠ .

الموقف من الدين

وهكذا يصل شميل الى النقطة الحرجة ، فعلماء عصره كانوا يتحفظون في مناقشة هذه المسائل فان ناقشوها فانهم يتحاشون الوصول بها الى عنق الزجاجة الخطر ، فهم في الغالب يناقشونها كمسألة غامضة أو مبهمة « وحدة الطبيعة » أم ثنائيتها ٠ هل يمكن للقوة أن توجد مجردة بغير كيان مادي ؟٠ وهكذا ٠٠

لكن شميل يعلن موقفا عنيفا وخطرا بتحديه للاديان فهو يعلن « ان الانسان طبيعي هو وكل ما فيه مكتسب من الطبيعة وهذه الحقيقة لم يبق سبيل الى الريب فيها اليوم ولو أصر على انكارها من لا يزال مفعول التعاليم القديمة راسخا في ذهنه رسوخ النقش في الحجر ٠ فالانسان يتصل اتصالا شديدا بعالم الحس وليس في تركيبه شيء من المواد والقوى يدل على اتصاله بعالم الروح والغيب فان جميع العناصر المؤلف منها موجودة في الطبيعة وجميع القوى التي فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة (١) ٠

(١) المرجع السابق ص ٤٠ ٠

والحقيقة أنه اذا كان شميل قد استمد كثيرا من أفكاره المادية من هيجل ومن المدرسة الالمانية فانه استمد وقفته من الدين من أبي العلاء المعري بالتحديد ٠٠

وكتابات شميل في هذا الموضوع تزخر بالعشرات من أبيات شعر أبي العلاء المعري ٠٠

لكننا نود أن نقرر حقيقة هامة وهي أن شميل كان يحترم الاديان كتراث انساني « فدينا التوحيد السائدان اليوم هما دين الانجيل ودين القرآن الاول يعلمنا التساهل الى حد أن ينسى الانسان نفسه في مصلحة قريبه أي أخيه والثاني يجعل الفقير شريك الغني في ماله اذ يفرض عليه نصيبا منه ٠٠ وكلاهما فيهما من الحكم الرائعةوالاداب العالية ما يجعلهما في مبدأهما الاجتماعي مطابقين لرأي اعظم الفلاسفة المصلحين الاجتماعيين اليوم » (١) ٠

وهو يؤكد بوضوح تام أن نظرية داروين لا تعارض الاديان ٠٠

لكنه يركز هجومه في الاساس على رجال الاديان فهو يقول :

« فنرى مما تقدم أن الدين نفسه ليس العقبة الحقيقية في سبيل العمران بل رجال الدين أنفسهم »(٢) ٠

ويقول « ولكن الاديان تتحول من النفع العام حتى تصير وسائل للكسب في أيدي أولئك الذين اتخذوها تجارة لجذب الدنيا ولو بالقضاء على الانسان ٠

(١) المرجع السابق ص ٥٧ ٠

(٢) الجزء الثاني من مجموعة د ٠ شبلي شميل مطبعة المعارف عام ١٩٠٨ ص ٦٢ ٠

رؤساء الاديان من كل دين وملة علموا الناس حتى اليوم
غير ما تأمرهم به الاديان ، وكم قاموا يبيعون دينهم بدانق
وفرطوا بمال الايتام وكم خدموا به أغراض عتاة حكامهم
ليقتسموا معهم ولو داسوا الدين بالاقدام » ٠

ولعل الذي دفع شميل الى هذا الهجوم هي تلك المعركة
المفتعلة التي حاول بها أنصار الاحتلال بث روح التفرقة بين
المسلمين والمسيحيين في مصر ٠٠

ولقد كانت هذه السياسة أحد الاهداف الاساسية
لسياسة كرومر في مصر ٠٠ وفي عام ١٩٠٩ عندما اغتال
الورداني بطرس باشا غالي تحركت عوامل الفتنة تحاول
ضرب عنصري الامة أحدهما بالآخر بل وتطور الامر الى مناظرات
ومساجلات حول تعاليم الديانتين ٠٠ وكانت هذه المناظرات
والمساجلات خطة استعمارية أيضا تستهدف اذكاء نار
الخلاف ٠٠

وفي هذه الفترة وقف شميل يهاجم رجال الدين المسلمين
والمسيحيين معا ويتهمهم بالتحريض على الفتنة فصاح بأعلى
صوته « يا مقلنسي الجهل ومعممي الضلال أين رأيتم في أديانكم
ما يسمح لكم بأن تزرعوا في رؤوس اتباعكم الجاهلين التفريق
بين الناس الى حد التباغض والتقاتل » ٠

وهو يستخدم ألفاظا بالغة حد العنف مثل « لو قامت
الانسانية في كل الدنيا ونسرت لحم رؤساء الاديان ـ الذين
هم وحدهم المسؤولون عن كل الفظائع التي ارتكبت ولا تزال
ترتكب باسم الدين ـ نسرة نسرة لما وفت حق الانتقام منهم
لما جنوه اليوم على الانسان » (١) ٠

---

(١) من مقال ضحايا الجهل ٠٠ جريدة الاخبار ٠ مجموعة عام ١٩٠٩ ٠

بالعلم الطبيعي .. وحده

والطريق الى التقدم والتحرز وتحقيق آمال الانسانية
هو احياء العلوم الطبيعية ٠٠

فالعلوم الطبيعية هي وحدها العلم الصحيح ٠٠ أما ما
عدا ذلك فلغو وسفسطة وتهريج ٠

« فالعلوم الطبيعية هي أم العلوم الحقيقية ويقتضي أن
تكون أم العلوم البشرية كافة وأن نقدم على كل شيء ٠٠ »(١) ٠

وايمان شميل بالعلوم الطبيعية وبأهميتها دفعه الى
موقف غريب ومتطرف فهو يرفض كل العلوم الاخرى ٠٠

فالفلسفة « وان كان لا يزال لها بعض معنى اليوم
فانها ستصبح مبتذلة في مستقبل الايام فالمستقبل اليوم
للعلم وللعلم العملي وحده »(٢) ٠

وعلوم الكلام على اطلاقها « أشبه بهذيان المصدعين
لتفسير ما لا يفسر وتأويل ما لا يؤول وتطبيق ما لا يطبق ،

---

(١) فلسفة النشوء والارتقاء ص ٨ ٠
(٢) المرجع السابق ص ٢ ٠

وقد أضلت عقول كثيرة وغلت عن العمل أيديا كثيرة فلم تنفع الاجتماع بشيء بل أضرته اذ أضلته وأصبحت عالة عليه » (١)

وعلوم اللغة « صارت مماحكات لا طائل تحتها لا كلاما وضع للتعبير عن الفكر ، والشعر اغرابا لا ابداعا في وصف الحقائق . وعلوم الفقه سخافات يتنزل العقل فيها الى حد التبذل وعلوم القوانين لاهوتا ثانيا لا يفهم . وعلم المحاماة مخرقة وتفننا في المشاغبات لا دليلا مرشدا الى الحق رادعا للباطل .. وصارت علوم الاداب والفلسفة المترتبة على ذلك كله هياما في الاوهام لا ضابط لها الا الخيال . وعلى هذه المبادىء النخرة شاد الانسان بنيان نظاماته الاجتماعية المتقلقلة » (٢) .

وأخيرا يجمل شميل رأيه في هذه العلوم كلها مؤكدا أنه سوف « يأتي يوم وما هو في تاريخ الاجتماع ببعيد تسقط فيه قيمة هذه المباحث الكلامية الفلسفية بل وينظر الى اصحابها كأنهم صبية يلعبون أو مصدوعون يهدون اذ اصبح العلم كله علم اختبار ويتمرن العقل عليه بالمزاولة ولا يعود يستعذب سواه فيقل النظر ويكثر العمل . ويقوم البرهان الرياضي مقام البرهان العقلي »(٣) .

ويشن شميل هجومه على الادباء والادب والشعر والشعراء .. ولكنه يصوغ هجومه شعرا ..

وهذا غريب جدا فشميل شاعر مطبوع ومجيد وهو يستخدم الشعر في كل محاوراته وكتاباته وقلما تجد له مقالا

---

(١) المرجع السابق ص ٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٥٩ .

في أي مجال من مجالات البحث العلمي بغير عدة أبيات من الشعر .

وقد تندر الادباء كثيرا بهذا الموقف المتناقض وكانوا يغيظونه بأن يؤكدوا أنه شاعر .

وتورد الانسة مي في كتاب الصحائف أبياتا من شعر شميل تقول :

حبذا زهر الربى من   كل صاف ومخضب
مثل فجر مستطير   أو كأفق قد تلهب
يتهادى في نسيم   كتهادي الطفل يلعب
والندى من فوقه حير   ان كالدمع تصعب
قلق مما يعاني   قلق القلب المعذب

وتؤكد « مي » أن شميل شاعر وشاعر مجيد وأن هجومه على الشعراء تناقض غير مفهوم وهي تروي عنه أنه كان يحضر الصالونات الادبية وينساق في تلاوة الشعر والاستماع اليه.. ثم يتذكر فجأة انه يؤمن بالعلم الطبيعي وحده فيصيح في الجالسين « بلاش غلبه يا أدباتية » .

ويعلق العقاد على هذه الابيات من الشعر قائلا : « من يستطيع أن يضرب على هذا الوتر ولو مرة واحدة في حياته فقد كان قادرا ولا شك أن يعيد النغمة مرارا وأن يكون أشعر مما كان لو راض قريحته على معاني الشعر وعباراته لولا شدة تعصبه للعلم » (١) .

---

(١) عباس محمود العقاد . مطالعات في الكتب والحياة ـ الطبعة الثانية . مطبعة الاستقامة ـ ص ٢٢٥ .

وعندما يثور الصراع حول مبادىء شميل الاشتراكيـة ويطالبه أحد مناظريه بأن ينشر برنامجا للاشتراكية فاذا بـه ينشر برنامجا يطالب فيه ..

■ أن تلغى مدرسة الحقوق وتمزق كتب القوانين وكتب الاقتصاد السياسي وسائر العلوم الكلامية .

■ أن يقام على أنقاض مدرسة الحقوق مدرسة للكيمياء والطبيعيات والميكانيكيات والرياضيات وعلم الافلاك ..

■ أن تنشأ جامعة لتعليم التاريخ الطبيعي والاجتمـاع الطبيعي والاقتصاد الطبيعي »(١) .

والحقيقة أن لشميل بعض العذر .. فالعلوم الطبيعية هي بالفعل السبيل لرقي الشرق والعلوم الكلامية قد تحولت في كثير من الاحيان الى سفسطة ولغو .

لكن ذلك كله لم يكن يبرر هذا الموقف الحاد .. العلوم الطبيعية وحدها .. ورفض الباقي رفضا مطلقا ..

لكن هذا الموقف لم يكن مجرد تطـرف في التعبير أو تحمس في موقف قرر شميل اتخاذه بل هو تعبير عن منطلق فلسفي يستحق بعض التأمل .

فشميل لا يكتفي بالحماس للعلوم الطبيعية بل هو يتبع نظرية سبنسر Spencer المسماة بالنظرية العضويـة للمجتمع Organic Theory of Society وهي نظرية تحاول أن تحلل الحياة الاجتماعية بشكل ميكانيكي وفقـا للقوانين الطبيعية .

---

(١) مجلة الوطن . مجموعة ١٩٠٨ .

وهو يتأثر الى حد كبير بنظرية التوازن Theory Epuilibrium (١) .

وهو أيضا يتأثر بأفكار بخنر في هذا الصدد فيتخيل أن تقدم العلوم الطبيعية هو مفتاح الموقف وانه السبيل لانهاض الشرق .. كما كان السبيل لانهاض الغرب ..

ويتصور أن المجتمع رهن بحل التناقض القائم بين العلوم الطبيعية والعلوم الكلامية والنظرية .. ورهن بحل التناقض بين القوانين السائـدة في المجتمع والقوانين التي تمليها الطبيعة .

« فالعلوم الطبيعية هي المعول الوحيـد الذي يزعزع أركان تلك العلوم و (العلوم الكلامية والنظرية) ويهدم بنيانها بل هي التي ستتكفل بقلب ما بني عليها من النظامات المقلقلـة والشرائع الحائفة ، التي هي سبب كل ما نراه من الاضطراب في الاجتماع لفقدان التوازن فيه .

فالشرائع التي تسوس الاجتماع هي اليوم والمبنية على تلك العلوم شرائع استبدادية لا تنطبق على نواميس الاجتماع

---

(١) وهي نظرية ميكانيكية فجة ومناقضة للفكر المادي . وترى هذه النظرية ان مصدر الحركة هو التناقضات الخارجية وتنكر اثر التناقضات الداخلية بشكل عام . وتنطلق هذه النظرية من اعتقادها بان تطور المجتمعات يعتمد في الاساس على علاقاتها بالظروف المحيطة وعلاقاتها بالطبيعة .. وعلى التناقض بين هذه المجتمعات وبين الطبيعة بينما تنكر اثر الصراع الطبقي كالمحرك الاساسي لتطور المجتمعات راجع :

M. Rosenthal and P. Yudin, A Dictionary of Philosophy progress publishers. Moscow 1967 P. 145 .

الطبيعي التي لا يصلح الاجتماع الا بها »(١) .

ثم هو يؤكد مرة أخرى « أن معرفة الناس بنواميس الاجتماع الطبيعي تجعلهم يحسنون تطبيق نظاماتهم عليه فيقدرون فيها ناموس التكافل القاضي بتقاسم المنفعة على قدر العمل حق قدره »(٢) .

وهو يقول أيضا أن « المصلحين الاجتماعيين الطبيعيين يرمون في نظام الاجتماع الى غرض طبيعي ممكن هو توفير قوى هذا الاجتماع حتى لا يذهب فيها شيء سدى وحتى لا يبقى أحد غير نافع ومنتفع معا .

فهم يطلبون من الانسان أن يفعل في نظام اجتماع الانسان ما يفعلونه الآن بقوى الطبيعة نفسها بتوفيرها والانتفاع بها وهذا ما نسميه « **ناموس الاقتصاد الاجتماعي الطبيعي** » .

لماذا قلنا هنا « الطبيعي » لان الاجتماع في الحقيقة طبيعي وكل نواميسه مستفادة من الطبيعة فاذا رددناه اليها فانما نكون قد رددنا الشيء الى أصله ووضعناه في محله »(٣)

وهكذا فان كل ما يريده شميل هو أن يطبق القوانين الطبيعية على المجتمع ٠٠ وعلى قواعد تطوره ويحاول أن يستخلص من الطبيعة ومسالك تطورها قوانين تطبق بشكل ميكانيكي على حركة المجتمعات الانسانية .

وقد قاده هذا الموقف الخاطىء الى طريق مليء بالعثرات وحول كل كلماته عن التقدم والاطاحة بحكم الاستبداد

(١) فلسفة النشوء والارتقاء ص ١٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢ .
(٣) مقال « الاشتراكيون » . جريدة الاخبار . مجموعة عام ١٩٠٨ .

وتخليص الشعب من تسلط المستبدين الى مجرد أحلام وأوهام ٠٠

فالتقدم ليس عن طريق التناقضات الداخلية في المجتمع ولا من خلال الصراع وانما بفرض العلوم الطبيعية واحلالها محل العلوم النظرية ٠٠

وطبيعي أن يؤدي ذلك به الى عدم الاهتمام بالصراع الطبقي والى عدم المشاركة فيه ٠٠

فقد اتخذ شميل موقفا سلبيا تقريبا من كل الاحداث والصراعات التي دارت في مجتمعه فكل هذه في اعتقاده مسائل عارضة ٠٠ ولن تحل المشكلة الاساسية ولعل هذا هو سر رفضه الانضمام الى أية أحزاب أو جمعيات معلنا أنه لا يريد ان يقيد نفسه بأي قيد ٠٠

وقد أدى به هذا التطبيق الميكانيكي للقوانين الطبيعية الى موقف غريب جدا من قضية المرأة .

فشميل أعظم دعاة التحرر في الشرق العربي وأكثرهم اصرارا على فكرة المساواة وتأكيدا لضرورة تخليص البشر - كل البشر - من قيود التعصب والتسلط يقف من قضية مساواة المرأة بالرجل موقفا غريبا ٠٠ فهو يصمم على رفض هذه المساواة منطلقا من حجج غريبة - فجمجمة الرجل أكبر من جمجمة المرأة ٠٠ ودماغ الذكر أثقل من دماغ المرأة ٠٠

ولذلك كان الذكر أعقل من الانثى باجماع الحكماء والطبيعيين وقد اتفقت جميع الشرائع على أن تعامل المرأة معاملة القاصر المحتاج الى وصي وسببه ما بها من الخفة والطيش »(١) .

(١) من محاضرات له في جمعية الاعتدال . مجلة المقتطف . المجلد الحادي عشر عام ١٨٨٦ .

وهو يرى أيضا « أن المرأة تنحط عن الرجل كلما كان الانسان أعرق في الحضارة والمدنية وتساويه أو ترتفع عنه كلما كان أقرب الى البداوة والخشونة جسديا وعقليا » .

ويقول في نفس المحاضرة « نحن نعتقد في صحة القاعدة وهي أن تغلب الرجل على المرأة من ضروريات الارتقاء والضد بالضد » ..

ويستقبل أنصار المرأة هذا الموقف بهجوم شديد وتنهال على المقتطف رسائل من عديد من السيدات يحتججن على موقفه .

فيرد متسائلا « كيف يمكن أن تكون هناك مساواة بين الرجل والمرأة » وهما مختلفان بالطبع من أصل الفطرة في التركيب والقابليات والواجبات فطلب المرأة مساواة الرجل كطلب الرجل مساواة المرأة أمر مستحيل »(١) .

كذلك قاده هذا الموقف – كما سنرى فيما بعد – الى موقف غريب جدا من الاحتلال الانجليزي فقد شهد المحتلين يمثلون دولة أكثر تقدما في العلوم الطبيعية من تركيا وشهد بعض التقدم في مجال التعليم فأغراه ذلك بتصور أن هذا هو السبيل الى تطوير المجتمع .. وان الاحتلال بالرغم من أي شيء وبالرغم من كل عيوبه يسير بالبلاد في الطريق الصحيح .. طريق العلم ..

ومرة أخرى تقود الافكار المجردة والتكهنات الفلسفية الخاطئة الى طريق مسدود ..

فحيث أن العلم الطبيعي هو مفتاح تطور المجتمع .. فلا بد للمجتمع أن يتطور وفقا لسنن الطبيعة .. وكما أن الطبيعة

(١) مجلة المقتطف . المجلد الثاني عشر عام ١٨٨٧ .

احتاجت في تطوير الانسان الى ملايين السنين فانها سوف تحتاج الى مئات الاجيال كي تطور المجتمع أيضا ..

وهو يقول « ان صلاح الهيئة الاجتماعية صلاحا تاما عاما لا يكون الا اذا كان العلم الصحيح تاما عاما ، ولا بد منه يوما ما ، الا أن ذلك الزمان بعيد جدا وربما لزم له مئات الاجيال لان ازالة ما رسخ في العقل من المبادىء في ألوف من الاجيال ليس بالامر السهل ، والطفرة في كل شيء محال فانتقال الانسان من الجهل التام الى العلم التام يستحيل في نظام هذا الكون دفعة واحدة فحال الانسان أدبيا كحاله طبيعيا فهو لم يوجد كما هو الآن دفعة واحدة بل اقتضى له ملايين السنين حتى خرج من الحيوانية الى الانسانية .. وهكذا لا بد له في قطع المسافات البعيدة التي تفصل بين أحواله الادبية من السير البطيء المتمهل »(١) .

لقد نسي شميل أن هذه القوانين الطبيعية عندما تنتقل الى مجال المجتمع والعلاقات والصراعات الدائرة في داخله تكتسب خاصية جديدة وطبيعة جديدة بحيث تتحول في واقع الامر الى قوانين جديدة .. وبدون ذلك فانها تتحول كما يقول لينين الى « كلمات جوفاء » . فان محاولة فهم الظاهرة الاجتماعية ومحاولة تفسير منهج العلوم الاجتماعية لا يمكن مطلقا التوصل اليه بالتطبيق المباشر للقوانين الطبيعية » (٢)

لكننا نظلم الرجل كثيرا اذا اكتفينا باظهار سلبيات

(١) المرجع السابق ص ٢٤٠ .

2 — Lenin Empirio - Criticism and Historical Materialism - Collected Works. Vol. 14 P. 328. Moscow 1962 .

منهجه الفلسفي فقد كانت دعوته الى العلم الطبيعي والى الاهتمام به ضرورية وشجاعة ، أيقظت كثيرا من العقول وألهمتها حب العلم والاهتمام به وضرورة الاستناد عليه في معركة التقدم ومعركة النضال ضد التخلف والخرافات التي كانت تسود كثيرا من مجالات التدريس والكتابة والتفكير في ذلك الحين ..

لقد كان شميل رائدا للعلم الطبيعي بغير منازع .. وقد تتلمذ على يديه كثيرون من طلائع النهضة المصرية الحديثة .. لطفي السيد ، سلامة موسى ، اسماعيل مظهر ، وآخرون ..

وفي واقع الامر فانه ليس من الممكن أن نتخيل تلك النهضة والانطلاقة الفكرية التي عاشتها مصر في مطلع القرن العشرين دون أن نتخيل شميل أحد الفرسان المبرزين لهذه الجولة التي تصل أهميتها الى حد اعتبارها الفترة التي تشكلت فيها المكونات الاساسية للفكر المصري الحديث ، وللمفكر المصري الحديث ..

وقبل هذه الفترة كان شميل يلقي بذور الدعوة للعلم ، ويؤمل لها أن تختمر بفعل الزمن وفي هذه الفترة كان شميل يصول في كل مجال رافعا راية العلم الحديث مؤثرا في الكثيرين من معاصريه مقدما للفكر العربي تراثا بالغا حد الثراء ..

هذه كلمة لا بد منها حتى لا تكون محاولة البحث عن المنابع الفكرية التي استقى منها شميل آراءه أو محاولة تقييم هذه الآراء وفقا للقواعد العلمية لتطور المجتمعات سبيلا لظلم هذا الرجل العظيم أو الاقلال من الاهمية التاريخية للتراث الذي خلفه ..

الموقف من الاحتلال البريطاني

ومرة أخرى نواجه بموقف غريب يستحق التأمل ..

والحقيقة أنه لم يكن موقف شميل وحده ، بل وربما كان موقف غالبية المهاجرين الشوام بغض النظر عن اتجاهاتهم ومنطلقاتهم الفلسفية ..

والغريب أن كثيرا من هؤلاء المفكرين الشوام قد وقعوا في هذا الخطأ الذي زاد من عزلتهم عن الشعب المصري ..

فولي الدين يكن يصدر كتابا يفيض بالحماس والدعوة للتقدم والهجوم على الاستبداد والمستبدين ويطالب الجموع بأن تطيح بالطغاة هو كتاب « المعلوم والمجهول » لكنه يصدر صفحات كتابه بصورة كرومر واصفا أياه بانه « مصلح مصر »(١) .

ولنترك يكن ليصف بنفسه رد الفعل الذي أحدثه ذلك وسط القراء المصريين .. فقد كتب في مقدمة الجزء الثاني من المعلوم والمجهول « نظر أناس في الجزء الاول من المعلوم والمجهول فرأوا صورة اللورد كرومر وقد كتبت تحتها «مصلح

---

(١) ولي الدين يكن . المعلوم والمجهول . الجزء الاول . مطبعة الشعب سنة ١٩٠٩ ص ٥ .

مصر » فألقوا بالكتاب جانبا وأطبقوا جفونهم وولوا عنه هاربين » (١) .

كذلك شميل ينظر للامر من وجهة نظر غريبة ..

« فلا عجب اذا رأينا الغرب باسطا فوق الشرق يديه ، طامحا ببصره اليه ، مزمعا أن يقبض عليه سنة الطبيعة ولن تر لسنة الطبيعة تبديلا » (٢) .

ثم هو يقول « ان مصر تحت سيطرة الانجليز انتظم ريها واتسعت زراعتها وأثرى فلاحها وصارت حياته ذات قيمة وانتظمت ماليتها حتى صارت موضع ثقة العموم وبلغت الحرية فيها مبلغا تفتحت له أبواب السجون »(٣) .

وعندما تثور مسألة مد امتياز قناة السويس وتقف الامة كلها وجمعيتها التشريعية وقفة شجاعة ترفض ذلك . اذا بشميل يعارض هذه الوقفة معلنا أن قناة السويس ملك للعالم كله وأن « حقوق الامم هي فوق حقوق كل فرد مهما تعاظم ، وحقوق العالم أجمع فوق حقوق كل مملكة » (٤)

وكان طبيعيا أن ينهال الهجوم على شميل ، بل أن شميل يورد في أحد مقالاته نقدا عنيفا وجهه اليه أحد المصريين تعقيبا على موقفه الخاطىء والغير منطقي من قضية امتياز قناة السويس يقول فيه « اليوم الوحيد التي فازت الامة فيه على الحكومة قمت يا حضرة العالم والفيلسوف تنتقد عملنا

---

(١) المعلوم والمجهول . الجزء الثاني . مطبعة المعارف سنة ١٩١٩ . ص ٣ .

(٢) مقال انحطاط الشرق الادبي والعقلي مجموعة شميل . الجزء الثاني ص ١٩٤ .

(٣) مقال نظرة هامة في مسألة عامة . المرجع السابق ص ٢٠٧ .

(٤) مقال العالم بعد ٦٠ سنة .. المرجع السابق ص ٢٩٣ .

فدعنا في جهلنا ودع علمك لبلادك » (١) .

ولا شك أن كلمات كهذه قد أثرت في رجل كشميل وهزته كثيرا والحقيقة أن موقفا كهذا يستحق الدراسة ..

لماذا اتخذ بعض مفكري الشام المتقدمين موقفا كهذا ؟ ربما كان الامر مجرد مناورة ..

فهم في الغالب هاربين من اضطهاد الاحتلال التركي البشع ووجدوا في مصر ملجأ ومتنفسا فحاولوا أن يلجأوا الى نفس الاسلوب القديم الذي لجأ اليه كل القادة المعزولين عن حركة الجماهير أسلوب اللعب على الحبال .. ومحاولة الاستعانة بالانجليز ضد الاتراك ..

وعلى المؤرخ المنصف أن يضع هذا الموقف في اطاره الصحيح وأن يقيمه بغير انفعال تماما كما يقيم موقف قادة وطنيين آخرين عزلوا أنفسهم عن حركة الجماهير ولعبوا على نفس الحبال محاولين الاستعانة بالاتراك ضد الانجليز ، أو الالمان أو الفرنسيين ضد الانجليز ..

وثمة عامل آخر يتعين وضعه في الاعتبار هو أن كرومر قد رسم خطة لحكم مصر تعتمد على « احكام القبضة بقفاز من حرير » فقد كانت الافواه الوطنية مكممة ومطاردة في سكون ودون ضجة بل وتحت رايات حرية الصحافة وحرية الرأي ، وقانون المطبوعات لم ينفذ الا مؤخرا في عام ١٩٠٩ وعندما نفذ هاجمه شميل ومطران ويكن والآخرون ..

وكان هؤلاء المفكرون يعانون في الشام من وطأة تسلط مستبد يكمم الافواه بشكل تام ويحرم أي نقاش علمي صريح ويدين أي حديث متقدم بالكفر فعندما جاءوا الى مصر وتحدثوا

---

(١) مقال حرية الطباعة . المرجع السابق ص ٣٣٢ .

عن نظرية داروين ، ووحدانية الطبيعة ، وأتيحت لهم فرصة الحديث الحر ضد القديم والتخلف .. ظنوا أن مصر واحة الحرية ،ناسين أن أي فم يطالب بحقوق الشعب المصري من محتليه كان يطارد ويطرد من مصر .. ناسين مأساة النديم الدامية ومطاردات الاحتلال للنضال الوطني .

وهكذا كان قفاز الحرير مغريا للمثقفين الذين يستمتعون بمجرد النقاش الحر والذين هاجروا من بلادهم بحثا عن متعة النقاش الحر حول مشاكل الدين والعقيدة والعلوم الطبيعية واصل الكون وأصل الانسان وما الى ذلك ..

وهنا يكمن الفارق بين المفكر التقدمي الذي يقف عند حدود التفكير .. وبين المناضل الذي يتلمس طريقه نحو حركة الجماهير ..

لقد كان الشعب يعاني من قيود الاحتلال ومن وطأته بينما هؤلاء المفكرون يظنون أنهم يعيشون في واحة الديمقراطية ..

لكننا مع ذلك نخطىء لو تصورنا أن هؤلاء الناس قد خدعوا تماما في طبيعة الاحتلال فقد كانت لهم تحفظاتهم ضده .. بل اننا نجد في كتاباتهم ما يوحي بأن موقفهم منه كان مجرد مناورة ولعب على الحبال ..

فولي الدين يكن بينما كان يستعد للهرب من الاستانة كتب يقول :

« اذا خرجنا من الاستانة اخترت الاقامة في أوروبا ، هنالك أجاهد في سبيل الوطن آمنا نكايات الاعداء ولا أدخل مصر الا زيارة كلما اشتقت اليها **فان بمصر من يحارب الاحرار وقد ملك عليهم البر في فجاجة وسد عليهم مسالك**

الحياة » (١) .

وشميل يشعر بعدم منطقية موقفه ، ويحس وكأنه بحاجة الى أن يوضح هذا الموقف فيكتب أبياتا من الشعر يخاطب فيها الوطن معتذرا له عن هذا الموقف ..(٢) .

فيا وطني ما خانني فيك خائن
من الحب أو أني رضيت به ندا
أريدك في عز ولكنني أرى
على غير ما أرضى أرى العز قد ندا
فان جرت في حكمي فما أنا جائر
وما أنا الا باحث لم يجد بدا

وهو ينتقد موقف سلطات الاحتلال من نشر التعليم فيقول :

« والانجليز مع اتيانهم للاصلاح في جميع الفروع الادارية ، لم يأتوا في أمر التعليم اصلاحا عظيما كما ينطق بذلك احصاؤهم بعد خمسة عشرة سنة من احتلالهم للبلاد **والسبب هو أن الحكومة الانجليزية في فتوحاتها قلما تهتم بالتعليم ولا تجرد الحسام الا لتفتح طريقا لتوسيع نطاق تجارتها ولتحويل ثروة الامم الى خزائنها** »(٣) .

ولعل في هذه الكلمات ما يوضح فهم شميل لحقيقة الاستعمار ولطبيعته ولاهدافه فهما صحيحا .

---

(١) المعلوم والمجهول . الجزء الاول . ص ٢٠٢ .
(٢) مقال انحطاط الشرق الادبي والعقلي . ج ٢ . ص ١٩٤ .
(٣) مقال ا ب ت ث المرجع السابق ص ٢٢٧ .

الحرية للشعب .. والموت للمستبدين ..

ولم يكن شميل مجرد عالم يقاتل من أجل انتصار آرائه العلمية لكنه كان حرا يعشق الحرية ويكره الاستبداد في أية صورة ويرفضه مهما كلفه ذلك من ثمن .

وصوت شميل يرتفع ضد الطغاة بغير تردد ..

وهو يوجه حديثه الى الملوك قائلا :

« مهلا سادتي الجالسين على عرشكم العالي وبيدكم صولجان المجد والقوة فلا يغضبكم انذاري ولا تقنطوا من حكم الدهر وقد عدل ، فلكم صبرنا على مضض .. ولا تطمعوا باسترداد ما فات »(١) .

وهو يهاجم الاساس الفكري للاستبداد ولسلطة الملوك فيقول « بالشرائع الثيوقراطية يترفع الرؤساء عامة عن الشعب ويستأثرون بامتيازات يجعلون بها واجبات هذا الشعب كثيرة جدا الى الاستماتة بالتقشف ، وحقوقه معهم قليلة الى حد الاستهانة بنفسه .. وبالسلطة الروحية التي لهم عليه

---

(١) فلسفة النشوء والارتقاء ص ٥٨ .

يسطون على عقله وعواطفه فيقيمون عليه من مخاوف أوهامه ضاغطا يجعله يقتنع بأنه لا يجوز له أن يكون في غير الحالة التي هو فيها . وبالشرائع الاوتوقراطية الاستبدادية البشرية يرهب الملوك هذا الشعب حتى تموت نفسه ويخيم الجهل عليه فيسلبونه حقوقه . ولا فرق بين عالم وجاهل في هذا الذل وموت النفس ، فكلاهما شرع في التبذل هذا يزحف ببطنه على الارض حتى يعفر جبينه بالتراب وذاك يتنزل بقريحته فيذلها الى مواطىء الاقدام تزلفا الى ملوك السيف وملوك المال » (١) .

وهو ايضا يهاجم التسلط والاغتصاب أيا كان مصدره ويكشف خدعة القوانين التي يسنها المستبدون ليحموا أنفسهم مدعين أنهم يحمون الحق والعدل ..

فالانسان سعى ليقهر بعضه بعضا ويسود بعضه على بعض ، انسان على انسان وقبيلة على قبيلة ، وأمة على أمة . فسن الشرائع ووضع القوانين توافق أميال القوى وتهضم حقوق الضعيف فظلم وهو ينادي بالعدل وتجبر وهو يعلم الناس التواضع وعتا وهو يوصيهم بالحلم »(٢) .

لقد كشف زيف البناء الفوقي للمجتمع وزيف القوانين والشرائع .. وهو يشن هجوما قاسيا على القوانين والقضاة الذين يصفهم بقوله :

« جالسون على منصاتهم كالارباب ، يقضون في مصالح الناس بلا ارتياب . يلبسون أردية كأهل المساخر .. حتى أصبحوا في أعمالهم يستمسكون بالاعراض ويعرضون عن

---

(١) المرجع السابق ص ١١ .

(٢) مقال ماذا قرأ وماذا رأى . الجزء الثاني ص ٦٧ .

الجواهر مفتونون بقانون ليس للعدل فيه أم ولا أب »(١) .

وهو يهاجم فكرة العقاب من أساسها ..

« فالعقاب الذي هو أساس الشرائع عموما والقضاء خصوصا أثر من آثار الهمجية وبقية من بقايا توحش الانسان الاول . وما دام هذا المبدأ الفاسد أساس القضاء فاصلاح الهيئة الاجتماعية به أمر مستحيل »(٢) .

وهو يتساءل لماذا نعاقب المخطىء .. « ألسنا نحن الذين علمنا الانسان أن يكذب لانه رآنا نعاقبه على الصدق ، وأن يسرق لاننا حجبنا عنه ما يحتاج اليه »(٣) .

واذا كان شميل يهاجم أسس الاستبداد فانه ينير الطريق الجديد الذي يدعو له وهو طريق الجمهورية ، وطريق الثورة ..

وهنا يبدو الفارق بين شميل العالم عندما يعزل نفسه وسط قوانينه عن التطور الطبيعي وبين شميل عندما يتحدث بلغة الناس ..

لكن أي نوع من الجمهورية .. وأي نوع من الثورة ..

الجمهورية التي يريدها هي « الجمهورية الحقيقية التي يتم فيها توزيع الاعمال على قدر المنافع العمومية بحيث تتوفر معها المنفعة لكل فرد في الاجتماع بدون أدنى تمييز مطلقا والتي تتوفر معها قوى الاجتماع بحيث يقل التبذير والتفريط بهذه القوى ما أمكن » .

« جمهورية تصبح فيها الامة الكل والحكومة لا شيء

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١١٩ .
(٣) المرجع السابق ص ١٢٠ .

بخلاف حكومات أوروبا وجمهورية فرنسا اليوم فانها كلها متقاربة في نظاماتها متساوية في بعضها ولو اختلفت اسماؤها، وكلها مقصرة عما تتطلبه الهيئة الاجتماعية اليوم وفي المستقبل .. » .

لكن كيف يمكن الوصول الى نظام كهذا ، لا طريق سوى حركة الجماهير ، فالشعب هو الذي يقرر كل شيء ، فاذا رفض الاستبداد زال الاستبداد واذا خضع واصل الطغاة طغيانهم . لا بد من أن تتحرك الامة » .. ويعلو صوت شميل « لا ينتظر أن تكون الحكومة أصلح من الامة ، بل لا تلام الحكومة اذا داست بأخمصها رقاب الرعية وهل تدس رقاب تأبى أن تداس ، ان من ينتظر الاصلاح عفوا من أية حكومة كانت يجهل لا شك تاريخ نشوء الامم ، وها التاريخ أمامنا ان الحكومات في كل زمان ومكان هي من يدعى للاصلاح »(١) .

على الامة اذن أن تتحرك ، أن تثور ، لكن أي نوع من الثورة يريد شميل ؟ « فالاجتماع لا بد له في بعض الاحوال من ثورة تخلصه من خطر الهلاك . ويلزم أن تكون الثورة صادرة عن استعداد باطن للشعب كأنها للشعب اتفاق خفي بين أعضائه موافقة لامياله . أي أن تكون قانونية والا انقلبت شرا عليه . والثورة التي تكون كذلك هي ثورة لا تغلب ولا تقاوم لانها ليست من أفعال الآحاد بل هي عبارة عن تخلص الجسم كله مما ثقلت وطأته عليه تخلصا طبيعيا وقانونيا »(٢) .

---

(١) مقال وكما تكونون يولى عليكم . الجزء الثاني ص ١٩٠ .
(٢) مقال تاريخ الاجتماع الطبيعي . المرجع السابق ص ٤١ .

والثورة ليست بعيدة المنال « فالايام حبالى ولا بد من أن تلد ثورة لا تذكر معها ثورة القرن الماضي ، ثورة تشترك فيها أوروبا كلها لا كما اشتركت في الماضي بقيام الدول كلها على فرنسا وانقياد بهائم شعوب تلك الايام الى دولهم انقيادا أعمى لنصر الجهل على العلم والظلم على العدل والتقييد على الحرية أي لنصر ظالميهم على أنفسهم ..

والثورة المنتظرة والتي لا بد منها هي ثورة تنصر الشعوب فيها بعضها بعضا والامم بعضها بعضا ينصرون بعضهم على حكوماتهم لقلبها وابدالها بما يكون أوفق لروح العصر وأحفظ لمصلحة الجمهور » (١) .

وهذه الفكرة عن الثورة تستحق التأمل خصوصا وأن شميل يضيف لها أبعادا جديدة « فالحكومات جميعا (القائمة في ذلك الحين) وحتى لو كانت في أعلى ذرى الاصلاح تقتل مصالح الجمهور في كل يوم » .

والحكومة الوحيدة القادرة على تحقيق العدل هي حكومة « الجمهورية الديمقراطية » التي تكون الامة فيها هي الكل والحكومة لا شيء » .

وشميل يقدس حرية الرأي وحرية الفكر ، وهو يدافع عنها حتى لخصومه .. فهو يهاجم رجال الدين ، لكنه يرفض في نفس الوقت الموقف المتعسف الذي اتخذته الثورة الفرنسية منهم ، وهو يرفض أي خدش لحرية الاعتقاد لخصومه .. فهو برغم موقفه من الاديان يكتب مستنكرا موقف الجالية الايطالية بالاسكندرية لانها نصبت في أحد مدارسها في يوم ذكرى غاريبالدي « أثرا نقشت عليه الكلام الاتي « ان العلم والادب

---

(١) فلسفة النشوء والارتقاء ص ١٤٥ .

لا يدركان الا بزوال العقائد والاديان . وقلت في نفسي التطرف من طبع الانسان ، أولئك أقنعوك بحد السيف وهؤلاء يريدون أن يحظروا عليك أن تؤم معهدا للعلم وأنت لا تقول قولهم .. العلم لا يدعونا الى الالحاد بل يكشف لنا الحقائق ..

ان هذا الكلام معلقا في مدرسة مناف لحرية الفكر التي هي غاية العلم ولا سيما أن مجموع الناس لا يقول كله هذا القول .. ان العلم يعلمنا حرية الفكر فكيف يجوز له أن يعلمنا الاكراه في الالحاد ، ان ذلك ضرب التعصب مقلوب الوضع »(١) .

هكذا يدافع شميل عن الحرية لكل الناس ، لاعدائه ولاصدقائه على السواء ..

والحقيقة أن فكرة شميل عن الحرية تستحق التأمل هي الاخرى فهو يدعو للحرية المطلقة الغير مقيدة بأي قيد .. حتى ولا قيد الدستور ولا قيد القوانين ..

« فالقانون مجموع شبهات وظنون وهو عقبة في سبيل تقدم الانسان ، فالشريعة ليست من العلوم الرياضية حتى تدون في بنود كقضايا مسلمة تجري مجراها ولا تنقح حتى يتفاقم شرها .. فالشرائع لا تعاقب ذنوبا بل مذنبين ، كما أن الطب لا يداوي أمراضا بل مرضى والاحكام الاجتهادية أفضل جدا من الاحكام القانونية »(٢) .

أما عن الدستور وهو يقول متحدثا عن نفسه « أنا حر ، كأحرارنا ولكنني غير دستوري فلا أقيد الحرية بالقانون ، لئلا أكون به حرا في استبداد أو مستبدا في حرية »(٣) .

---

(١) مقال علموهم ولا تقسروهم . المرجع السابق ص ٢٨٥ .
(٢) مقال نظرة عامة في مسألة هامة . المرجع السابق ص ٢١٠ .
(٣) مقال سيادة الامم ومستقبل الملوك . المرجع السابق ص ٢٠٠ .

بل هو يرفض أن ينضم الى أي جمعية حتى ولو اتفق معها في الرأي فهو يريد أن يبقى حرا دون أي قيد ..

« وهذا هو السبب الذي لاجله لم أقبل أن انتظم في جمعية انتظاما قانونيا ولو انضممت الى مبدأها وكنت في طليعة الذائدين عنه لاني أريد أن تبقى لي حرية القول والعمل للبلوغ اليه غير مقيد بنظام أو زمان » ..

وهو يحاول أن يشرح تصوره لهذا المجتمع الذي يريد ، المجتمع القائم على العدل ولكن بغير دستور ولا قانون ، يسمي هذه الحالة « اللانظام » لكنه يخشى أن يتهم بالفوضوية فيقول :

« واللانظام الذي ندعو اليه ليس كأوس الاقدمين ولا كفوضى المحدثين وانما هو نظام ايضا ولكنه متحرك فلا يستقر على مر الاجيال حتى تضيع به الغاية التي وضع لاجلها بل يتغير وفقا لكل حال صونا لهذه الغاية »(١) .

والخلاصة أن شميل العالم يتدخل هنا أيضا عند صياغة فكرة الحرية في المجتمع فطالما أن كل شيء متحرك ، وأن الغايات تختلف باختلاف الزمان فكيف تصان هذه الغايات بقواعد ثابتة لا بد من أن يتحرك كل شيء .. الغايات والوسائل معا ..

الاهداف والقوانين معا . لا شيء ثابت .. وعلينا أن نتخير الصالح وفقا لكل حالة على حدة ...

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٢ .

الاشتراكية طريق حتمي

وتلك هي الخطوة المجيدة التي تتوج تاريخ شميل ، فشميل لم يكن مجرد داعية للعلم ولا للتقدم والتحرر والمساواة ، لكنه كان داعية للاشتراكية .

وقد بشر بها في شجاعة وحماس ولعل كتاباته عن الاشتراكية بمعناها الحديث هي أول كتابات شهدتها مصر عن هذا الموضوع .

لقد كانت صيحة جديدة توجت النضال الشجاع لمفكر عبقري .

وشميل يخوض المعركة ضد رأس المال وضد كل أشكال الاستغلال ..

وهو يسمي الرأسماليين « لصوص المجتمع » ويقول ان الحكومات لا هم لها الا أن « تضمن لهم أسباب السلب والنهب ، يصادرون ويرابون ويجمعون المال بالاحتيال للاستئثار بمنافع الاعمال التي لا ينال القائمون بها الا ما يتبلغون به من العيش .. لصوص يسرحون ويمرحون

وتحميهم الشرائع التي تعززها الحكومات »(١) .

وهو يشهر بالاغنياء ويشن عليهم حربا شعواء .. فيقول :

« رأيت الفاعل يشتغل في الحر والعرق يتصبب من بدنه كالمطر ليطعم سواه مما جناه ، ولا يناله من ذلك الا نزر يسير لا يفي بحاجة زوجته العارية وأولاده الجياع ..

رأيت الغني الشبعان يبلع الجمل ويتستر ، والفقير الجائع يتلصص لسرقة رغيف من الخبز الاسمر ، والقانون يكافىء ذاك برفع القبعات ويعاقب هذا بالسجن سنوات ..

رأيت معالم الظلم تشاد فوق الناس تحت لواء العدل ودعوى الهداية والعالمية تسري تحت قلانس المكر وعمائم الجهل »(٢) .

ثم يوجه هجومه الى النظام الرأسمالي .. الى كل شيء فيه ..

« فالاجتماع شديد التنازع قليل التكافل لشدة ما فيه من التبذير في القوى التي له ولذلك لا يزال منحطا جدا بالرغم من اندفاعه البديع في القرن الماضي ،لانك كيفما جلت بنظرك رأيت أمورا يأنف منها الطبع وينكرها العقل وقد ينفر الانسان منها حتى لا يقدر أن يضبط نفسه عن القيام ضدها ، نراها في شرائعه ونظاماته وعاداته ومعاملاته في كلياتها من حيث الغاية منها والباعث عليها وفي جزئياتها من حيث تطبيقها على كل فرد من أعضائه حتى أن البحث فيها لا ينضب » .

وهكذا فان الهجوم ينال كل شيء ، العادات ، الشرائع،

(١) فلسفة النشوء والارتقاء ص ١٤٨ .
(٢) مقال المريض . ج ٢ ص ١٥٧ .

النظم ، المعاملات وهو يتناولها في كلياتها وجزئياتها ..

وفي مقاله الشهير : « لطمة على خد العالم » يقول شميل(١) :

« لقد كان في الامكان تدارك الشر لو أن الحكومات لا تنقاد انقيادا أعمى لاصحاب الاموال أو كأن هؤلاء يخفضون قليلا من كبريائهم ويعترفون بحقوق من لولاهم لبارت تجارتهم وقل استثمار أموالهم ، ولكن الله لما أراد بمعسكر فرعون شرا قسا قلب فرعون . ولا أظن شيئا يثير الاحقاد ويبلغ بها الدرجة القصوى مثل هذا النبأ البليد الذي جاء كاللطمة على خد الانسانية .. نبأ أن المساعي بين أصحاب المعامل والاموال متجهة الى احباط أعظم معرض تتجلى فيه المدنية بأبهى مجاليها فكأن أصحاب الاموال يتهددون العالم أجمع بقحة لا تماثلها قحة بأنهم سيطمسون بما أوتوه من سلطان المال أنوار العقل ويعيدون عصور الجهل .. ان هذا النبأ الشنيع سيكون له تأثير شديد في الجمهور .. وسيعجل بتلك **الثورة** المنتظرة التي تقلق الهيئة الاجتماعية منذ سنين والتي بلغت أقصاها في هذه الايام .. »

.. انه يتحدث صراحة عن الثورة ، لكن أية ثورة يعني ، انه يقولها بصراحة ولا يخفيها « ثورة العمال ضد أصحاب المال ، ثورة قوى العقل المستنبط واليد العاملة ضد فساد نظام الاحكام واستئثار رجال المال ».

.. هكذا بوضوح وصراحة **ثورة العمال ضد أصحاب المال** ..

والهدف هو الاشتراكية ..

(١) الجزء الثاني ص ١٤٣ .

والاشتراكية طريق حتمي « **فالاشتراكية نتيجة لازمة لمقدمات ثابتة لا بد من الوصول اليها ولو بعد تذبذب طويل** » .

والاشتراكية كالاجتماع نفسه ذات نواميس طبيعية تدعو اليها .. »(١) .

فالاشتراكية مرحلة من مراحل المجتمعات .. يسير المجتمع بالضرورة نحوها .. وهكذا فان شميل يريد منذ البداية أن يكون واضحا .. فهو لا يريد الاشتراكية عطفا ولا شفقة ولكنها حق ضروري يسير المجتمع نحوه حتما .. لكنه « كلما ارتقى الانسان وزاد اختباره استخدم هذا الاختبار لتقصير مدة الوصول الى الاشتراكية » .

وكثيرون « يطرقون هذا المبحث ويكثرون فيه من المن على الانسان فيطلبون الاصلاح له لضعفه وسقمه .. يطلبونه له رأفة به وشفقة عليه ، أما نحن فنقول ان الانسان في الاجتماع في غنى عن رحمة الراحمين وشفقة المشفقين فلا نطرق هذا المبحث بتحريك العواطف ولا ندع للانسان على الانسان منا ، لاننا ننظر في ذلك الى المصلحة المشتركة »(٢) .

وشميل لا يخفي اشتراكيته ولا كونه اشتراكيا فهو يكتب مقالا في عام ١٩٠٨ على صفحات جريدة الاخبار بعنوان « الاشتراكيون » (٣) يدافع فيه عن الاشتراكية وعن مبادئها .. وينبري سليم سركيس محاولا أن يسكت هذا الصوت وأن يرهبه فيطالب شميل بأن يحذر حتى لا تلصق به تهمة الاشتراكية .

---

(١) مقال الاشتراكية الجزء الثاني ص ١٨٣ .

(٢) مقال الاشتراكية المرجع السابق ص ١٥٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١٧٩ .

وهنا يرد عليه شميل ردا مفحما في مقال بعنوان : « الاشتراكية » (١) فيقول :

« في كتابك على صفحات المؤيد طلبت مني أن أثبت حقيقة وأن أدفع شبهة ، طلبت أن أبين لماذا أدافع عن الاشتراكيين وأن أتوسع في الموضوع لان ما كتبته على صفحات الاخبار لم يكن مقنعا وأن أدفع عن نفسي سوء الظن بي ، كأن الاشتراكية وصمة وأنا قد تلوثت بحمأتها وأنت لا تريد لي ذلك ، أو أنك تريد أن أبين الحقيقة الناصعة وأن أخرج منها طاهر الذيل.. فشكرتك على حسن ولائك ولو اني أعجبت أكثر بدهائك .. لقد كنت أفهم قبل اليوم أن الاشتراكية في نظر خصومها مطلب بعيد المنال فاذا هي فوق ذلك وصمة تعرض صاحبها لاقبح المظان . »

ثم هو يحاول في مقال آخر أن يفسر فكرته عن الاشتراكية فيقول :

« لا شك أن الاشتراكية اذا أريد بها الاشتراك بالمنفعة من غير الاشتراك في العمل تكون حلما باردا واذا كان الاشتراك في هذه المنافع على غير نسبة الاشتراك في العمل فلا شك أنها تكون جورا ومميتة لكل اجتهاد .

ولكن اذا كان الاشتراك في العمل والاشتراك في المنفعة على نسبة هذا العمل تكون حينئذ عدلا وأكبر حاث على الاجتهاد » .

وبهذا الدفاع عن الاشتراكية وبهذا الشرح الذكي لها تكون صفحة جديدة تماما قد فتحت في تاريخ الفكر المصري الحديث ..

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٢ .

ويكفي شميل فخرا أنه صاحب هذه الصفحة . فهو أول دعاة الاشتراكية بمفهومها الحديث والى حد ما بمفهومها العلمي ..

لكن الامر يتطلب وقفة نحاول فيها أن نلقي بعض الضوء على المنافع النظرية التي استمد منها شميل فكرته عن الاشتراكية ..

والذي لا شك فيه أن شميل قد تأثر ببخنر ، فبخنر هو النافذة الاساسية التي أطل منها شميل على فكر وفلسفة المدرسة الالمانية ..

ويبدو أثر بخنر واضحا في كتابات شميل التي يحاول فيها أن يؤسس فكرته عن الاشتراكيه على قاعدة من دراسة قانون النشوء والارتقاء ..

وهي فكرة كثيرا ما يرددها شميل ..

ولا شك أنه قد تأثر في ذلك بكتاب بخنر « الداروينية والاشتراكية Darwinism and socialism وهو كتاب يعلق عليه انجلز قائلا « ان بخنر يحاول أن يدافع عن الاشتراكية والاقتصاد السياسي منطلقا من فكرة الصراع على البقاء »(١) .

وقد كان بخنر عضوا في الاتحاد العام للعمال الالمان * وقد حضر عددا من الاجتماعات الدولية الثانية ممثلا لهذا الاتحاد .. متخذا في الاساس موقفا اصلاحيا ..

---

1 — Engels. Dialectic of Nature Moscow 1954. P. 273 .

★ All Gemeiner Deutscher Arbeiterverein .

هذا هو المنبع الاول لفكرة شميل عن الاشتراكية .. غير أن هناك منابع أخرى هامة عناك الفكرة العريقة التي ترددت كثيرا في الفكر العربي ولدى عديد من المفكرين العرب عن العدالة والمساواة وغير ذلك من الافكار المتقدمة التي ترددت عند ابن خلدون وابي العلاء وغيرهما .

وهناك أيضا مصادر عديدة من الفكر الفرنسي الذي تأثر به شميل خلال زيارته لباريس ، لكن ثمة مسائل هامة يتعين تأملها ..

فهو يورد في كثير من كتاباته كلمة الفوضوية الى جوار كلمة الاشتراكية وهو يتحدث عن الاتجاهين كشيئين متشابهين ..

« فالفوضوية والاشتراكية لا تطلب حقيقة الا ما تراه كل يوم في نظام الطبيعة الصامتة من اشتراك الجمهور في مصلحة الجمهور »(١) .

بل انه يتورط في الدفاع عن الفوضوية فيورد في احدى مقالاته رسالة كتبها فوضوي قبل أن ينفذ فيه حكم الاعدام .. ويعلق عليها قائلا « ان ما جاء في هذه الرسالة من الحقائق سوف يؤيده المستقبل ، فان الافكار التي تنطوي عليها هذه الرسالة كلها حقائق لا يرتج منها الا ضعاف العقول وما ذنب كاتبها في محاولته ارتكاب الجناية الا زيادة التحمس مقابل زيادة بلادة الهيئة الاجتماعية . والتحمس كثيرا ما يؤدي الى التهور والذنب انما يكون على هذه الهيئة وحدها »(٢) .

والحقيقة أن شميل لم يكن يعطف على « الفوضوية »

---

(١) مقال الاشتراكية جـ ١ ص ١٣٠ .

(٢) مقال «كتاب فوضوي» جـ ٢ ص ١٤٩ .

ولا على أساليبها وانما هو يؤيد كل من يقف ضد النظام ، وأية معارضة للنظام القائم – حينئذ – شيء جيد ، والعنف والارهاب يفيد – في نظر شميل – في ايقاظ المجتمع ..

وهو يتحدث عن أساليب هؤلاء « الناقمين » على المجتمع قائلا :

« وليس شأنهم هذا بالنظر الى تعاليمهم ومبلغها من الصحة والموافقة ، بل بالنظر الى موقفهم تجاه الاجتماع ،فان هذا وحده كاف لايقاظه ومنعه من التقهقر وتمهيد سبيل الارتقاء له .

ولذلك كان أول خاطر يجب أن يخطر للباحث المدقق عند ذكر الناقمين ، ليس الطرق التي يتذرعون بها والخطط التي يسنونها لمقاومة نظام الاجتماع .. بل الخاطر الذي يجب أن يخطر له هو لماذا هذا القلق المستحوذ على الاجتماع في كل أطواره فلا شك أن السبب هونقص نظاماته عن توفير الراحة »(١) .

وشميل – مع ذلك – لايؤيد أساليب الفوضويين ، بل هو يهاجمها قائلا :

« أنا لا أنكر أن الطرق التي يتذرع بها الناقمون تكون أحيانا مشجوبة الا أنه يظهر أن مثل هذا الهز لازم لاحداث التأثير المطلوب وهو ايقاظ الغافل وتنبيه الفكر للبحث بدليل أن نظام الاجتماع نفسه على ما هو عليه اليوم فيه من الفظائع ما هو مشجوب أكثر ولكننا ألفناه فلا نتحرك له »(٢) .

ولكي نضع فكرة شميل عن الاشتراكية في وضعها

---

(١) مقال «الاشتراكيون» ج ٢ ص ١٨٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٢ .

الصحيح ، يجب ألا نحاول أن ننظر اليه كتابع لفلسفة محددة .

حقيقة أن شميل قد تأثر بالاشتراكية الالمانية الاصلاحية، لكنه كان صاحب موقف خاص وفكر أكثر تجديدا وربما أكثر تقدما ..

فقد رأينا أنه كان كثيرا ما يردد في مجال الحديث عن العلوم الطبيعية والنشوء والارتقاء أفكار هذه المدرسة فاذا تحول للحديث عن السياسة نراه يتحدث من موقع أكثر تقدما ..

ويجب ألا ننسى أن شميل أدرك أن الثورة .. والثورة العمالية بالتحديد هي الطريق لاقامة الاشتراكية .. بل أنه قد بشر بثورة وشيكة الوقوع يقف فيها عمال أوروبا موحدين ضد رأسماليها .

وهذا بغير شك تقدم كبير ..

غير أن شميل كان يخضع لمؤثرات خاصة – غير تلك التي خضع لها مفكرو أوروبا .

فالمفكرون الاوروبيون – على اختلاف مدارسهم – كانوا يتحدثون تحت تأثير الثورة التي توشك أن تنفجر في ظل مجتمع صناعي متقدم ..

بينما شميل – وبعد أن ردد كل هذه الافكار عن الثورة – يجد نفسه في مجتمع لا تزال طبقته العاملة في أول مراحل التكوين ، والمجتمع نفسه يعاني من الكبت والاحتلال والتخلف والامية والتقاليد البالية .. ولا بد لذلك كله أن يترك أثره على مثقف كان – بالرغم من كل شيء – معزولا عن الحركة الحقيقية للجماهير ..

وهكذا خضع شميل لتأثير تصوره السطحي لحركة الاحداث في المجتمع المصري فتصور أن الطريق الى الاشتراكية

ما زال بعيدا جدا ، وأن الاساس ليس الدعوة للاشتراكية وانما الدعوة للعلم .

وقد تصور شميل أن ظروف المجتمع المصري لا تسمح بتكوين أي تجمع اشتراكي ، وانها لن تسمح بذلك حتى بعد سنوات طويلة .

وعندما سأله أحد مناظريه لماذا لا تؤسس حزبا اشتراكيا اعتبر ذلك مجرد نكتة .. في وقت كانت توجد فيه في مصر بالفعل مجموعات اشتراكية لم تعلن عن نفسها .

بل أن شميل كان يتصور أن الوضع في مصر من التخلف بحيث لا يسمح باقامة أي حزب لاية طبقة من الطبقات ..

« فالاحزاب هي في نظام الاجتماع من الكماليات ونحن لا نزال في حاجة الى أقل من الضروريات ونشوءها لا يكون باتلالها بل هي تنشأ من نفسها متى اكتمل الاجتماع ، فزعماؤنا يحاولون أن يخلقوا في نظام اجتماعهم جسما مشوها ولكي أثبت أن زعماءنا رؤوس بلا أجسام فلينهضوا ونرى كم ينهض وراءهم »(١) .

والغريب أن شميل كتب هذه الكلمات عام ١٩٠٧ وفي وقت كانت الحركة الوطنية قد بدأت تستيقظ بالفعل وكانت الطبقة العاملة قد وجدت طريقها الى العمل الجماعي ونظمت سلسلة من الاضرابات الناجحة ..

من يدري ربما لو كان الاجل قد امتد بشميل ثلاث سنوات فقط وعاش ليرى ثورة ١٩١٩ ليرى جموع العمال والفلاحين يخوضون غمار ثورة شاملة ومسلحة .. ربما كان قد غير موقفه مثل كثيرين غيره سلامة موسى ، المنصوري

---

(١) مقال «ارق ليلة» المرجع السابق ص ١٤٦ .

وآخرين ظلوا هم أيضا يتصورون أن اقامة حزب اشتراكي مسألة بعيدة المنال ، ثم ما لبثت الثورة أن تفجرت وتحركت جموع العمال والفلاحين بصورة لم يكن يتخيلها أكثر المثقفين تفاؤلا ، وهنا وجد المثقفون الاشتراكيون في أنفسهم الثقة كي يعلنوا تكوين حزبهم ..

واخيرا ..

لعلنا نظلم الرجل عندما نحاول أن نضع كلماته تحت مجهر الانتقاد ، ومعايير الاشتراكية العلمية ، لكننا لم نحاول أن نظلمه ، نحن فقط نسلط الاضواء بحثا عن المنطلق الحقيقي لفكر شميل وعن موقعه الاجتماعي .

وبرغم كل ذلك يبقى شميل مفكرا عملاقا ، ورائدا عبقريا من رواد الفكر العربي التقدمي الحديث ..

يبقى صاحب الصوت الشجاع « الحقيقة أن تقال لا أن تعلم .. » .

يبقى الرائد الحقيقي للمنهج العلمي في التفكير ، للدفاع عن العلم ، للدفاع عن الاشتراكية ويكفيه هذا فخرا .

★

ولا بد أن شبلي شميل قد مات مستريحا . فقد حظي قبل وفاته بتقدير كبير من مواطنيه المصريين واللبنانيين على السواء ..

فقد توجه الخوري بولس الكفوري صاحب جريدة « المهذب » في زحلة بلبنان بنداء الى المصريين واللبنانيين على السواء للتبرع لطبع الاعمال الكاملة لشبلي شميل ..

وانهالت التبرعات ..

لكن كثرة الاسماء اللبنانية « الياس صباغ بيروت ، بولس طراد بيروت ، علي بك جنبلاط بيروت ، بطرس أفندي ذاغر بيروت ، نقولا دوماني بيروت ، يوسف هاني بيروت .. الخ .. توضح لنا كيف كان لبنان يتابع باعزاز كفاح طلائعه التي اختارت النضال على أرض مصر ..

وصدرت الاعمال لشميل .. ومات الرجل مستريحا..

- ٢ -

فرح أنطون
اسطورة الثورية الرومانسية من طرابلس

■ فليحذر العالم من يوم يصير فيـــه الضعفاء أقوياء والاقوياء ضعفاء ·

★

■ لا تقل هاتوا زعيما صادقا ، بل قـــل هاتوا شعبا راقيا وأنا الكفيل بزعيـم حر من بين الحقول وأكواخ الفقراء ·

★

■ فبث المبادىء الاشتراكية وحده لا يكفي لتأييد الاشتراكية بل لا بد من تحريض أنصارها على تنفيذها بالقوة ، ولا بد من غرس فكرة التحريض في النـــاشئة الجديدة والا بقيت الاشتراكية فلسفـة نظرية فقط الى ما شاء الله .

فرح أنطون

« لقد رأيت فرحا مرارا ، ولكنني لم أكلمه الا مرتين أو ثلاثا ، وكانت مرة منها في مكتب « الاهالي » ·· اذ كـــان يعمل في تحريرها فتلاقينا في غرفة الاستاذ صاحبها وتعارفنا على يديه ، فسمعت من نبرة صوته وفاق ما رأيت من خشوع نظرته ، وأحسست موضع دائه ، فقلت له مؤاسيا ـ وكان كلامنا على النهضة السياسية ـ « انك يا فرح أفندي طليعة مبكرة من طلائع هذه النهضة العامة وسيعرف لك المستقبـل من عملك ما لم يعرفه الحاضر ، وستكون حين يفترق الطريقان خيرا مما كنت في هذا الملتقى المضطرب » فأومأ برأسه ايماءة شاكرة وحرك يده حركة فاترة وقال « انه يا أخي تيار جارف ، فماذا يحفل المستقبل بالحاضر · وماذا يبالي السائر للغد بمن كان قبله في مفترق الطريق » ·

عباس محمود العقاد

« ايه ايه يا فرح ، أنت ما مت ، أنت مشيت الى الخلود على ضوء براعتك ·
كفروا · كفر الاولى ما دعوك رسولا ، وجهاد الرسولية يعبق به شق قلمك · ان لفي كتبك وبين تضاعيف سطـورك تلمع أمضى السيوف نضالا وانتصارا ودفاعا ·
كم سكبت من روحـــك ! من ضوء عينيـــك ! من دم

فؤادك ! انك لمن على درجات التضحية حملت كلمة البشارة الى بني جلدتك ·

بيمينك حبكت اكليلك الخالد ·

بريشتك الساحرة طرزت ثياب العرس فادخل الى فرح ربك · »

عن دير مار جرجس الحصن — الارشمندريت **ايصائيا عبود**

« ان الفراغ الذي أحدثته وفاة فرح أنطون في الادب العربي لن يملأه أحد في أيامنا الهوجاء هذه . فقد كان فرح كاتبا يعيش ليكتب ، ويكتب ليعيش ·

فهو أول من أنشأ مجلة أدبية تقتصر على الادب هي مجلة الجامعة · واني لاذكر تلك الساعات اللذيذة التي قضيتها في المكتبة الخديوية أطالع مجلداتها الممتعة · وقد تركت اذ ذاك في نفسي أثرا شبيها بذلك الاثر الذي يتركه دين جديد في قلب حديث الايمان به · فكانت تعتلج في صدري لواعج واحساسات غامضة وتنفتح أمامي أبواب تترك في نفسي شيئا أشبه بمقام الكشف عند الصوفية ·· » ·

سلامة موسى

على « فرح » فليحزن الشرق حزنه
فما هو فرد انما هو جيل
لقد كان طودا للحقيقة راسخا
تميل رواسيها وليس يميل
اذا ما انبرى للحق واشتجرت له
هنالك أقلام عليه تصول

يخط بمطرور الشباة سطوره
ففي كل سطر رنة وصليل
وفي كل صفح جيش علم مظفر
جناحاه فيه حجة ودليل
فتى كان صدقا في فم الدهر بيننا
وجل البرايا كذبه وفضول
فتى كان لا يرضى الحياة حقيره
فعاش ليفنى والجليل جليل
فتى كان بابا واحدا لا كغيره
بناحيتيه مخرج ودخول
فتى كان أندى من نسيم بلاده
بفجر الروابي والنسيم بليل
فيالسيفي كم يقتل العقل نابغا
وكم عاش بالجهل الهني جهول
ليالي النسيم المقمرات قصيرة
وليل الشتاء المقشعر طويل

مصطفى صادق الرافعي

سريعا ٠٠ سريعـــا ، أتى وذهب ، كالشهاب مـر ٠٠ واختفى ، عاش حياته القصيرة وكأنه يدرك قصرها ،يكتـب ويقرأ ويقول ولا يضيع وقتا ٠

في طرابلس ولد ٠٠ لأب تاجر أخشاب ، وفي كفتيـن تعلم ، وفي الاسكندرية حرر صدى الاهرام ، وفي القـاهرة حرر الجامعة وعشرات غيرها من الصحف ، وقال عنه أصحابه في فكاهة باكية أنه تخصص في اغلاق الصحف ٠٠ قلمه الحار الدافق كفيل باستصدار قرار من قلم المطبوعات بتعطيـل أي جريدة يعمل فيها ، وفي نيويورك حاول أن يواصل أداء رسالته وأصدر « الجامعة » هناك ، واتصل بالاشتراكيين الامريكيين وأسس مع أمين الريحاني « الرابطة القلمية » ٠

ثم عاد الى مصر ٠٠ ومرة أخرى أصـدر كثيرا من الكتب ، وحرر كثيرا من الصحف ، وكان له شرف التسبب في اغلاق العديد منها بيد سلطات الاحتلال ٠

٠٠ عاش حياته متقدا يريد أن يقول كلمته بأسرع مـا يمكن ، وكأنه كان يحس أنه سيمضي سريعا ٠

أن يكون الانسان ثوريا نشيطا فهذه مسألة محتملة ،

أما أن يقضي حياته ملتهبا ٠٠ « اشتراكي محموم حرارتـه دائما فوق الاربعين »(١) فهذه مسألة أخرى ٠٠ ولقد قضى فرح أنطون « حياته في حالة التهاب دائم . وعندما دخل حواره الشهير مع الشيخ محمد عبده أذاب نفسه تماما في هذا الحوار « وعصبت رأسي كما يقال ، وانصرفت ثلاثة شهور الى درس هذا الموضوع وحده ، حتى فقدت النوم والقابلية » لكن هذه الاشهر الثلاثة المضنية التي صرفها فرح في محاورة الاستـاذ الامام « لا شبيه لها في التاريـخ الا منـاظرة الخوارزمي والهمذاني »(٢) ٠

ومع أفراح الشعوب ـ أيضا ـ أذاب نفسه ، فهو يكتب الى صديق عمره « نقولا الحداد » عقب الانقلاب العثمـاني « ان سروري بهذا الانقلاب كان عظيمـا حتى أنه قد مضى علي يومان وأنا لا أنام من شدة التـأثر ، لقد حان الوقت للعمل والنهوض بالامم الشرقية ، اذ استيقظت من سباتها»(٣)

هكذا عاش فرح أنطون « كأنما يسري من حيث لا يعلم الناس الى حيث لا يعلمون ، ذاهب الطرف أنى سار كالعابر من عالم لا يذكره الى عـالم لا يرجوه غير مشغول بأمـر

---

(١) مارون عبود ـ جدد وقدماء ـ دراسات ، نقد ، مناقشات ـ دار الثقافة بيروت ـ عام ١٩٥٤ ـ ص ٣٥ ٠

(٢) المرجع السابق ص ٢٩ ٠

(٣) ملحق بالسنة الرابعة من مجلة السيدات والرجال ـ فـرح انطون ـ حياته وتأبينه ومختاراته ـ سبتمبر ١٩٢٣ ـ مطبعة يوسف كوى بمصر ص ١٣ ٠

الطريق »(١) ٠

فقد أثقل أنطون كاهل نفسه بقراءات واسعـــة من كتابات « روسو ، رينان ، فولتير ، كونت ، داروين ، نيتشه، كارل ماركس ، تولستوي ، ابن رشد ، ابن طفيل ، الغزالي، عمر الخيام وسواهم »(٢) ٠

وتنقل بينها جميعا يعجب بهذا وذاك في آن واحـد ، وتعذبه حيرته بين هؤلاء جميعا ، كل منهم فيه شيء يريده ، وشيء آخر يرفضه ، وتمزق بينهم « على أن هذه الثقافة المأخوذة من مطالعات سريعة غير متئدة ، فوضوية ، غير منتظمة ، متنوعة غير محدودة ، مفرطة غير معتدلة لا يسهل في الغالب هضمها على ملتهمها »(٣) ٠

هكذا قال عنه البعض ، بينما قال آخرون أن مقالاته « كانت جديرة بأن تكتب بماء الذهب »(٤) وقال سلامة موسى أنها تركت في نفسه « أثرا شبيها بذلك الاثر الذي يتركه دين جديد في قلب حديث الايمان ٠٠ » ٠

والحقيقة أن فرح كان يتمزق بالفعل بين فلسفات عديدة ، كان مؤمنا ٠٠ وغير متدين ، مسيحيا ولا يصلي « لم نره يوما في كنيسة ، وما سمعنا أنه حضر قداسا على أن

---

(١) عباس محمود العقاد ٠ مطالعات في الكتب والحياة ـ المرجع السابق ـ مقال فرح انطون ـ ص ٦٥ ٠

(٢) مارون عبود ـ المرجع السابق ـ ص ٧ ٠

(٣) مناهل الادب العربي (العدد ٩) ـ فرح انطون ، مكتبة صادر بيروت عام ١٩٥٠ ص ٤ ٠

(٤) لطفي جمعة ـ من خطابه في تأبين فرح انطون ـ ملحق مجلة السيدات والرجال ـ المرجع السابق ص ٢٤ ٠

ذلك لا يمنع أن يكون مسيحيا مخلصا »(١) ٠

« وهو أول من عرف العرب بالفيلسوف الالماني « نيتشه» وأول من عرفهم أيضا بالمعلم كارل ماركس »(٢) ٠

ويحتار « فرح » بين هذا وذاك ٠٠ وبينما هو يصارع الموج في لجة أفكار نيتشه في قصته « العالم الجديد أو مريم المجدلية » حيث يقف شيشرون ليلقي خطبا مستوحاة من نيتشه في تحقير الضعف واحتقار الرحمة وتعظيم القـوة ، فاذا به يتوقف عن نشر هذه الرواية واعـدا بطبع تتمتها على حدة ، ثم يسرع الى نشر رواية ملفا لمكسيم جوركي ٠٠ « وهكذا التقى الصيف والشتاء على سطح واحد »(٣) ٠

لكن « فرح » وان كان قد مضى سريعا ، فاننا لا نستطيع ان نجاريه في سرعته ، بل يتعين علينا أن نتوقف طويلا ٠٠ محاولين أن نتأمل في تأن ظاهرة فكرية فذة ٠٠ تفجرت سريعا ٠٠ وخبت سريعا ٠

* * *

ولنبدأ في غير اطالة باستعراض شريط حياة قصيرة ٠٠ شديدة الثراء ٠

ولد فرح أنطون في طرابلس ١٨٧٤ وتخرج في مدرسة كفتين ٠٠ تاجر مع أبيه في الاخشاب ، ثم استقل بتجـارة

---

(١) محمود ابراهيم ـ صاحب جريدة الاكسبريس ٠ ملحق مجلة السيدات والرجال ـ المرجع السابق ص ٢٨ ٠

(٢) مارون عبود ـ المرجع السابق ص ٢٤ ٠

(٣) المرجع السابق ص ٣١ ٠

لنفسه ، لكنه ابتعد عن هذه المهنة « لانها لا تتفق مع ذوقه ، ولان الاخلاق اللازمة للتجارة ليست فيه ، ولان نفسه كانت نزوعة الى الاعمال العقلية »(١) ٠

ثم تولى ادارة مدرسة أهلية في طرابلس أنشأتها جمعية خيرية للروم الارثوذكس ، لكنها لم تكن مدرسة طائفية ، فرئيسها بروتستنتي والمدير والناظر مارونيان وأستاذ اللغة العربية مسلم ، ولم يكن بها سوى معلم أورثوذكسي واحد ٠٠ فتركت هذه المدرسة المختلطة أثرا هاما في نفوس تلاميذها ، بل وفي نفس مديرها ٠٠ « فرح » الذي أحس معنى التخلص من التعصب فكتب قائلا « ان هذه المدرسة قد تركت أثرا أدبيا لم يبرح نفسي قط ، ولعله كان ذا تأثير على أفكاري في كل حياتي »(٢) ٠

وفي طرابلس أسس جمعية أدبية ، ثم استقر رأيه في النهاية على أن يتخذ صناعة القلم حرفة شريفة ، وهو يعتقد أنها خير ذريعة لخدمة الشرق ، ويظن أن صرير القلم خير صارخ في الآذان لايقاظ أهل الاوطان الشرقية ٠٠ وكان يعتقد أنه مجند من المجندين لهذه المهمة »(٣) ٠

ولان مصر هي في نظره « المركز الاوسط لجميع العالم العربي ومنه تنتشر الخدمة الوطنية الادبية انتشار الاشعة الى جميع الجهات » فقد قرر أن يخوض معركته فوق أرضها ٠٠ وجاء الاسكندرية عام ١٨٩٧ ، وبدأ بالكتابة بأسماء

---

(١) ملحق مجلة السيدات والرجال ٠ المرجع السابق ص ١٠ ٠

(٢) مناهل الادب العربي ـ المرجع السابق ص ٣ ٠

(٣) نقولا الحداد ـ ملحق مجلة السيدات والرجال ـ المرجع السابق ص ١٠ ٠

مستعارة في عدد من الصحف ، ومن أشهر مقالاته في ذلك الحين مقال نشره بالاهرام بعنوان « دائرة الحق » ووقعه باسم « سلامة » ٠

ثم بدأ في اصدار مجلة « الجامعة » في ١٨٩٩ ، وفي البداية أسماها « الجامعة العثمانية » داعيا على صفحاتها كل شعوب الشرق التي تحكمها الدولة العثمانية ٠٠ للعمل المشترك ضد الغرب الاستعماري ، لكنه كان يروج أيضا فوق صفحاتها علوم الغرب وكثيرا مما يتردد فيه من آراء ومذاهب ٠٠ » فكان فرح شرقيا ٠٠ يكره أوروبا ، لكنه يحب الكثير من عقائد الغرب الاجتماعية »(١) ٠

وازدهرت الجامعة ازدهارا غير متوقع ٠٠ « ولقي الادباء والمفكرون في هذه المجلة الطريفة معنى ومرتعا ، تجلى لهم فيها الابتكار في موشى أثوابه ، ومبهج ألوانه ٠٠ ولقد ثقل ردنها بالفوائد وأوعيت صفحاتها الجلائل بالطرف وشهي الثمرات ، بحيث ارتفعت في أعداد معدودات الى مرتبة أقدم المجلات العربية وأوسعها وأذيعها ، ثم نمت وأوفرت ، بحيث صارت شغل المفكرين ودأبهم ، وسوق عكاظ لرجالات العلم والحكمة فيها يتساجلون ويتنافرون » (٢) ٠

وكانت الجامعة أيضا « مجلة أصحاب المبادىء الجديدة والذين حرروا عقولهم من القديم ، وكان صاحبها يحاول بها تحرير العقول الشرقية ، والمذاهب الاجتماعية من ربقة الماضي ، ففاز بعد نضال كبير وأوجد حزبا كبيرا يناصره

---

(١) مارون عبود ٠ المرجع السابق ص ٢٥ ٠

(٢) احمد ابو الخضر منسى ـ فرح انطون ـ مطبعة الاعتماد ـ عام ١٩٢٣ ص ٢٠ ٠

وهو حزب العصر الجديد عصر الانطلاق والافلات من كل قيد الا ما يأمر به العقل والاكتشاف » (١) .

ولما انتقلت جريدة الاهرام من الاسكندرية الى القاهرة طلب منه المرحوم تقلا باشا أن يتولى تحرير صدى الاهرام بالاسكندرية « فلبى الطلب على وعد أن الباشا يبيعه اياه متى استتب أمر الاهرام في القاهرة فبقي يحرر الصدى مع الجامعة نحو ستة أشهر ثم رأى تقلا باشا أن يلغي الصدى بتاتا فألغاه » (٢) .

ويقول لطفي جمعة أن فرحا « حرر صدى الاهرام في الاسكندرية حتى كاد الصدى يتغلب على الصوت في القاهرة فانتزعه منه من يملك الاثنين معا »(٣) .

ثم أصدر لشقيقته « روز » زوجة المفكر نقولا الحداد مجلة « السيدات » وكان يعاونها في تحريرها وفي عام ١٩٠٧ اقترح عليه ابن عمه الخواجة الياس أنطون التاجر في نيويورك أن يرحل الى أمريكا وأن يمارس نشاطه الصحفي هناك ، باعتبار أن المغتربين هناك «حقل واسع لبث مبادىء الحرية» .

فسافر الثالوث « فرح – روز – نقولا » ليواجهوا مصيرا جديدا وهناك أصدروا «الجامعات» جامعة شهرية وأخرى أسبوعية وثالثة يومية لكنها سرعان ما توقفت لاسباب مالية ..

وخلال وجوده بأمريكا تبنى فكرة اشتغال المغتربين السوريين واللبنانيين بالزراعة ، وحثهم على ذلك واستكتبهم

---

(١) محمود ابراهيم (صاحب مجلة الاكسبريس) ملحق مجلة السيدات والرجال – المرجع السابق ص ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٠ .

عرائض تطالب الحكومة الامريكية بمنحهم الارض بشروط سهلة ..

ولان فرح ينفذ كل فكرة تطرأ على ذهنه بكل الحماس الواجب بل بكل العنف الممكن فقد وهب نفسه تماما لهذا المشروع وجاب أمريكا كلها .. الى كل مكان يوجد فيه مغتربون يدعوهم الى احتراف الزراعة ..

***

وخلال جولته .. وقف وقفته الشهيرة أمام شلالات نياجرا حيث كتب مقالته الشهيرة « في ظل شلالات نياجرا » وهي مقالة حظيت بشهرة واسعة جدا ، وأمام روعة الشلال ، وقف فرح أنطون خاشعا يتعبد ، لكنه عابد من نوع خاص ..

« أتذكر أيها الشلال يوم كان شاطئاك مرتعا لاولئك الهنود المساكين قبل أن يصل اليك البعض ويغتصبوا أرضهم هذه ظلما وعدوانا ؟ »

ثم هو يتحدث عن عملية البناء الرأسمالي التي غيرت وجه أمريكا وأحالتها الى مجتمع جديد « قد غيروا أرضك ومن عليها أيها الشيخ ، وهم يظنون أنهم حسنوها وحسنوك ، وجملوها وجملوك ، وما جمالهم الا كجمال المرأة الدميمة : زخرف خارجي ، وطلاء سطحي حك هذا الطلاء قليلا فتجد تحته جيفة منتنة » .

ثم هو يؤكد للشلال ... أن وحوش الامس التي كانت ترتع على شاطئيه أرحم وأجمل من وحوش الرأسمالية « فان الامم تتعادى وتتسلح تأهبا لاقتتال أفظع من اقتتال الذئاب ، والشعوب يأكل في داخلها كبيرها صغيرها ، وقويها ضعيفها كما تفعل اسماكك » .

ثم يمضي سريعا من الادب ·· الى السياسة ··

« فروكفلر يملك من المال ألف مليون بينما ملايين من البشر يستعطون الخبز الآن ولا يجدونه ، وهو يستخدمهم بأجور تافهة لزيادة ثروته الملطخة بدمائهم وعرقهم ، وهم يسكتون ويعملون لانهم مضطرون· والسلطة في الارض ضعفت وكادت تنحل فان الناس أسقطوا العروش والملوك ولكنهم أقاموا مكانها ملوكا لكل واحد منهم ملايين من الرؤوس ، فقويت بذلك سلطة المشعوذين والدجالين والجهلاء الناصحين، الذين يتملقون الشعوب ويضلونهم ، كما كان أخصاء الملوك يتملقونهم ويضلونهم والافراد يتخاصمون ويتعادون ، ويفترس بعضهم بعضا بأيديهم وألسنتهم وأقلامهم ، تنازعا على الرزق والسيادة ·· وقبح هذا الرزق وهذه السيادة اذا كان لا تبلغ اليهما الا بالرجوع الى وحشية وهمجية أشد من الوحشية والهمجية الاولى ·· فاذا كان كل هذا هكذا ، أيها الشلال فأين الارتقاء والذي يزعمونه ؟ وما فائدتك في استبدال ذئابك القديمة بهذه الذئاب الجديدة التي لها طباع تلك ؟ »(١) ·

هكذا قدم فرح صورة في غاية القتامة للمجتمع الرأسمالي ·· هكذا لم تبهره أمريكا بكل تقدمها كما بهرت الآخرين ، لكنه استطاع أن ينفذ ببصيرته الى العمق فيمحو الزخرف الخارجي ، ويحك هذا الطلاء السطحي البراق ليجد تحته جيفة الرأسمالية المنتنة وأسلوبها الوحشي في افتراس البشر ·

وقد حظي هذا المقال بصيت ذائع ، الى حد أن بعضهم يقول أنه يعتبره « من أقوى وأجمل وأنفع ما كتب في العالم

(١) مناهل الادب العربي ـ المرجع السابق ـ ص ٤٢ ·

بأية لغة من اللغات »(١) ·

·· وخلال جولته وقع الانقلاب العثماني الشهير فهزه من الاعماق واستحثه الى العودة سريعا ·· فالشرق يتحرك ، ولا بد من أن يواكب هذه الحركة في مواقعها ، وعاد الى مصر من جديد ، وفي طريق عودته مر بباريس حيث قابل محمد فريد رئيس الحزب الوطني ، واتفق معه على أن يشارك فور عودته في تحرير صحف الحزب ، واشترك بالفعل في تحرير « البلاغ المصري » و « اللواء » ، وشارك في تحرير « مصر الفتاة » و « مصر » و « الوطن » وغيرها ، وفي هذه الفترة كان فرح يتأجج حماسا ووطنية ورغبة في النضال ضد الاستعمار والدفاع عن مصالح الشعب ، وعن هذه الفترة يتحدث لطفي جمعة في خطابه لتأبين فرح قائلا « ·· وفي كل جريدة من تلك الجرائد كنت تدافع عن الحق ، وعن الوطن ، أي عن مصر ، التي عددتها لنفسك ولاهلك وطنا ثانيا ، ولم يتحول مذهبك يوما ، ولم يتغير رأيك ساعة ، كنت تكتب باعتقاد واخلاص، وتنصر الحق أنى كان ، فانتصرت لنا ، ولمبادئنا الوطنية في أحرج مواقفنا ، وانتصرت للعمال في اضرابهم ، وانتصرت للشعب على السلطة وللحق على القوة ، وللمحكومين على الحاكم المستبد · وفي الوقت الذي كان فيه كثيرون من النزلاء الشرقيين يستبيحون كل منكر ضد مصر والمصريين ، كنت أنت ونفرا قليلا من الرجال المباركين تعرفون لمصر جميلها وتأخذون بيدها في شدتها وهذا جميل نذكره لك ولا ننساه ·· »

(١) لطفي جمعة · خطابه في حفل التأبين ـ ملحق مجلة السيدات والرجال ـ المرجع السابق ص ٢٢ ·

وقد كانت مقالات فرح في هذه الفترة من الشدة والعنف بحيث اشتهر بأنه المتسبب بعنف مقالاته في اغلاق السلطة لعدد من الصحف ..

ويتندر البعض بقصة مقال وحيد نشره في « مصر الفتاة » فأغلقها .. « مرض رئيس تحرير مصر الفتاة توحيد بك السلحدار ، وقد كان فرح يومئذ يحرر في اللواء فناب مناب توحيد بك للصداقة التي بينهما ، فكتب مقالته المأثورة ، ولكنها للاسف كانت سببا في اغلاق وزارة سعيد باشا لهذه الصحيفة بغير سابق انذار ، وهو اغلاق لم تبعث بعده الى اليوم »(١) .

واشتغل في صحف عديدة ، وشارك عبد القادر حمزة وأحمد حافظ عوض في تحرير « الاهالي » و « المحروسة » وقلما تقرأ الاهالي والمحروسة من بعدها فلا تجد له افتتاحية بقلمه القدير ، أكثر ما تكون غفلا أو يذيلها بحروف ف.أ.. أو « فران » الحرفان الاولان من أسميه .. « وقد روى الاستاذ عبد القادر حمزة أن السلطة العسكرية شددت على المحروسة الوطأة وكانت منذرة بالاغلاق فاتفقنا على أن نرجح كفة السياسة الخارجية على كفة السياسة الداخلية حتى تهدأ العاصفة وتنكشف الغمة ، فكلمت فرحا في الاكثار من الكتابة في السياسة الخارجية وترك الكتابة في السياسة الداخلية أياما تنفرج فيها الازمة ، فلم يتمالك أن امتعض »(٢) .

ويتحدث نقولا الحداد عن هذه الفترة من حياة فرح فيقول « بهذه الروح عاد من أمريكا الى مصر فاذا بالشعب

---

(١) احمد ابو الخضر منسى . المرجع السابق – ص ٣٤ .
(٢) المرجع السابق – ص ٣٩ .

المصري قد انتقل من دور العلم الى دور العمل ، ووجد أن الزرع الذي زرعه فقيد الوطن مصطفى باشا كامل وانصاره قد نضج وان وقت الحصاد قد حان . وجد أن النهضة الوطنية التي كانت تختمر في السنين الماضية قد تحركت فصادفت حركتها هوى في نفسه وأي هوى ، رأى أن فكرة « التنفيذ » التي نضجت في نفسه ، نضجت أيضا فيهذا الوطن الذي أصبح محور النهضة الشرقية كلها .. فانصرف عن النظريات الفلسفية الى العمل ، وتحول من العلم الى السياسة .

واتفق في ذلك الحين أن انتدب للتحرير في بعض الصحف اليومية ، فوجدها ميدانا أوسع لجولات قلمه فترك الجامعة ، وجعل يحرر في الصحف ولكن بقلم من نار ، وتنقل بين الجريدة ومصر الفتاة واللواء والبلاغ المصري والمحروسة ومصر والوطن فكان لكتاباته تأثير شديد في نفوس الجمهور يعرفه جيدا أصحاب تلك الجرائد ، حتى حسبت السلطة له حسابه وأي حساب » .

ويروي نقولا الحداد أن أحد الموظفين المقربين من سلطات الاحتلال قال له « ان نسيبك (فرح أنطون) متهور في كتاباته بشأن الحركة الوطنية ، فأخشى أن يفضي تهوره الى نفيه كما نفي أصحاب البلاغ المصري بسبب قلمه فحبذا أن تنصح له أن يعتدل .. »

ثم ما لبث ذلك الموظف أن استدعاه وأنذره هذا الانذار فقال له فقيدنا « اتأسف أن أقول لك أنني لست أحترف القلم لكي أسترزق منه فقط ، بل احترفه لاكتب ما تقرأه فاذا لم يؤذن لي أن أكتب ما يوحي الي به ضميري ، فاطلب الرزق من حرفة أخرى غير القلم .. »

ويرد عليه عميل الاحتلال قائلا : نعم الافضل أن تحترف

حرفة أخرى ، لان حجتك هذه غير مقبولة في نظر السلطة المحلية مهما سوغها لك ضميرك » ٠

ويمضي نقولا الحداد قائلا « غير أن فقيدنا لم يكترث ، بل استمر في خطته فكانت نتيجتها حينئذ اقفال ثلاث جرائد على التوالي بسبب شدة قلمه وتشبثه بالحرية في احقاق الحق وايضاح الحقائق »(١) ٠

وكانت « الجامعة » قد أغلقت ٠ والحقيقة أن لغطا كثيرا قد تردد حول توقف فرح عن اصدار الجامعة ، فقال البعض انه هجرها ليتفرغ لكتابة أكثر ربحا هي كتابة المسرحيات (٢) وقالت الهلال « انه أخفق في اصدارها بعد عودته ٠٠» وألمحت الى أن السبب كان قلة المال ٠

وترد روز أنطون أخت فرح على الهلال قائلة : ان فرح لم يقفل الجامعة لقلة المال لانه لو اراد المال لكان أتاه من بابه كما فعل غيره من أهل الصنعة ، ولكنه أقفل الجامعة لوقت معين لسبب سام شريف لا يسمح لي بذكره ، ولكني سأذكره في حينه انصافا لتلك الروح التي يحق أن نسميها عالية وشريفة لانها رفضت كل شيء حرصا على شرف المبدأ»(٣) ٠

والحقيقة أن الجامعة كانت تتعثر منذ زمن بعيد٠٠فمنذ عام ١٩٠٣ وهي السنة الرابعة من حياة « الجامعة » نلاحظ ان الصفحة الاولى من أحد أعدادها مذكور عليها انه الجزء السادس من السنة الرابعة بينما الغلاف ملصق عليه قصاصة صغيرة من الورق مكتوب عليها الجزء ٦ ، ٧ ، ٨ ،

---

(١) ملحق مجلة السيدات والرجال ـ المرجع السابق ـ ص ١٣٢ ٠
(٢) احمد ابو الخضر منسى ـ المرجع السابق ص ٢٤ ٠
(٣) مارون عبود ـ المرجع السابق ـ ص ٢٠ ٠

ومعنى ذلك أنه تخلف لمدةطويلة عن اصدار العدد السادس ثم يصدر بعده عددا برقمي ٩ ، ١٠ في نهاية العام وقد صدر هذا العدد الاخير في أربعين صفحة فقط في حين أن العدد السابق عليه كان في ٢٢٧ صفحة ٠ ويعتذر فرح في نهاية هذا العدد بأن الذي أعاق الجامعة عن الانتظام هو اهتمامها باصدار عدة كتب لتوزع كملاحق مع المجلة ٠٠ لكنه وعد في العام القادم بالتركيز على انتظام الاعداد ٠٠ وخاصة بعد أن اشترى مطبعة خاصة للجامعة « وستقوم بأعمال تجارية وافتتح أيضا مكتبة لبيع الكتب »(١) ٠

لكنه يبدو أن المشروع كله قد تعثر فترك فرح المجلة والمطبعة وهاجر الى نيويورك ثم عاد فحاول اصدارها ، لكنها توقفت بعد فترة ٠

المهم أن قلم فرح لم يتوقف عن الكتابة ٠٠ حرر صحفا كثيرة ، ومضى حتى استقر في (الاهالي) يكتب ضد الاحتلال مقالات كالصواعق ، وأغلقت « الاهالي » ستة أشهر ، وصدرت « المحروسة » لتحل محلها ، ثم أغلقت المحروسة ، وقاربت الشهور الست على الانتهاء وأوشكت الاهالي على الصدور من جديد ، ويجري الحوار التالي بين فرح ونقولا الحداد ٠٠

« **الحداد** : من الافضل أن تخففوا الهجوم حتى تسلم « الاهالي » من عقاب الاقفال ٠

فرح : معنى هذا أن نرمي سلاحنا ونرفع العلم الابيض ونسلم انفسنا للخصوم ٠

الحداد : ولكن ماذا تفعلون اذا عادت الحكومة وأقفلت

---

(١) الجامعة ـ العدد ٩ ، ١٠ ـ السنة الرابعة ـ ١٩٠٣ ٠

الاهالي ثانيا ..

فرح : نحن محاربون ، فاقفال « الاهالي » أفضل جدا من أن نحيد قيد شعرة عن خطتها . والهلاك في الحرب أفضل من التسليم .

الحداد : ولكن ماذا تفعلون وهي مقفلة ؟

فرح : نفعل ما يفعله الجيش اذا تحصن عدوه من جهة فنأتي اليه من جهة أخرى . في الفنون الحربية ما يسمونه « حركة التفاف » ونحن نلجأ الى « حركة التفاف » .

الحداد : كيف ؟

فرح : نكتب كتبا وكراريس ونؤلف روايات تمثيلية عن سكان جزيرة واق الواق والشعب ذكي يفهم »(١) .

وعادت الاهالي للصدور . ونشر فرح في صدرها مقالا بعنوان « بين الاقفال والفتح » قال فيه « قضى على الاهالي بالسكوت ستة أشهر مكرهة مضطرة فسكتت مرة ، ثم رأينا أن نجرب هواء الحرية الجديد ونبلو ريح الاستقلال التي كانت تتمخض به الايام فأحللنا جريدة المحروسة محل الاهالي نحو شهر حتى يتاح لنا أن نقول كلمتنا في الشؤون الخطيرة التي كانت على الابواب . الا أن جريدة المحروسة أسكتت كما أسكتت الاهالي من قبل ، وكان اسكاتها على وجه

---

(١) د. رفعت السعيد – نقولا الحداد – سلسلة طلائع الفكر الاشتراكي (٢) – دار الثقافة الجديدة – القاهرة – عام ١٩٧٢ . ص ٥٩ .

التقريب ليلة تشكيل الوزارة الجديدة وزارة الحرية والاستقلال ، فعلمنا يومئذ حقيقة الجو الذي يريدون خلقه ومعنى الريح الجديدة التي سيجعلونها تهب على الناس .. على أن المحروسة كانت قد أدت وظيفتها وعملت ما كان عليها كفراشة الحرير تنسج الذي أرادت نسجه ثم تموت في باطنه بعد أداء وظيفتها .

والآن نحن مضطرون أن نجرب تجربة جديدة ، لان وظيفتنا أن نعمل ونكتب وننشر ما توحيه الينا ضمائرنا وذممنا . فان كان في نظام الوزارة الجديد ، واتفاقها الجديد مع السادة الانكليز ما يبيح لنا العمل والحياة كسائر الناس، أخذنا حقنا ونصيبنا من العمل والحياة من غير أن نحيد قيد أنملة عما توحي به الينا ذممنا وضمائرنا واما اذا كان في ذلك النظام وذلك الاتفاق ما يوجب علينا نحن أن نكون من أهل الكهف على الدوام ، وعلى صحفنا أن تكون قبل صدورها من أهل القبور ، وان الامتياز الجديد للعصر الجديد ، هو الوزن بميزانين والكيل بكيلين ، وان الحياة أصبحت في مصر مباحة لفريق من الناس دون فريق ، فلا عدل ، ولا حق ولا أمن ، ولا حرية ، الا اذا وافقت هذه الامور أغراض الحكام أو أهواءهم . ان كان ذلك قد أصبح كذلك ..

فيا موت زر ان الحياة ذميمة

ويا نفس جدي ان دهرك هازل »

ولم يصدر من الاهالي سوى عددان وأغلقت في اليوم الثالث .. ولم تكن النهاية بالنسبة للاهالي وحدها ، ولكنها كانت النهاية بالنسبة لفرح نفسه ..

فقد كان مريضا مرضا شديدا ، لكنه بكل الرومانسية التي سيطرت عليه أبى أن يستسلم للمرض ، وحملوه حملا الى ادارة الجريدة ، حيث حرر أكثر مواد العددين الاول والثاني

وعاد بعدهما الى البيت منقولا على اثر اغماء أصابه ٠٠ ولم يخرج بعدها من بيته الا الى القبر ٠

لقد حاولوا منعه من الذهاب الى « الاهالي » لكنه أصر قائلا « لا بد من عودتي الى العمل ٠٠ ولا بأس من أن أموت في ادارة الاهالي »(١) ٠

***

لكننا بذلك نقفز فوق مرحلة هامة من حياة فرح أنطون هي مرحلة تفرغه للمسرح ٠٠ ففيما بين اغلاق صحف الحزب الوطني وهجرة قادته ، وبين صدور « الاهالي » مضت سنوات قاتمة من حياة مصر ، سنوات فرضت فيها الحماية البريطانية ، ونزلت قبضة الاحتلال بكل قسوتها لتسكت كل صوت معارض ، في هذه السنوات انغمس فرح أنطون بشكل كامل في كتابة مسرحيات ٠٠ بعضها جيد ، وبعضها نال هجوما ونقدا لاذعا ، واتهمه البعض بأنه « كان ينظر الى هذه الروايات نظرة تجارية ، لا يبالي فيها بالفن والادب الحقيقي بل لم يبال معها بشهرته القلمية الطيبة التي كسبها » ويقولون أنه « كان لا يبيع روايته التمثيلية مهما كان شأنها وضعف قدرها الا بمائة جنيه كاملة ، وكان يقدم الرواية لجوق تلو اختها على مسافات قليلة » و « لقد أسرف بعض الاسراف في هوى النفس ٠٠ فراح ينقاد لضرورات المسرح ليرضي منيرة المهدية والوسط المحيط بمنيرة والدهماء المولعين بمنيرة ٠٠ وما كنت تسمع من أفواه الادباء والعارفين فضل فرح الا

---

(١) نقولا الحداد ـ بحث تحليلي ـ ملحق مجلة السيدات والرجال ص ١٣٦ ٠

التأسفات ومر الانتقادات » (١)

ويكتب آخر قائلا ان فرح « قد حولته الحاجة عن مجراه، الى مسرحي سطحي يكتب ليعيش » (٢)

فاذا ما لجأنا الى ناقد جاد كالعقاد نجده يقول « كان فرح أنطون كاتبا على استعداد للرواية الفضلى وكانت ملكته القاصة تظهر أحيانا في مقالته الادبية والسياسية كما تظهر في رواياته وحكاياته ، وقد مال به هذا الاستعداد الى وضع الروايات ، فأحسن وارتفع في روايته « أورشليم الجديدة » ثم تقلبت به ظروف ، وألمت به محن ، وتجرع مرارة الخيبة مرارا ، وطلب اليه وهو بين اليأس والرجاء أن يترجم أو يكتب للمسرح فلبى ، وبدأ بداءة حسنة ، ولكنه لم يحقق بغيته فكان عثاره أكثر من صوابه ، وقد حضرت احدى رواياته التلحينية أخيرا فما أطقت الصبر على أكثر من فصل منها ولم أر في موضوعها ولا في فنها ولا في غنائها ولا ممثليها ولا في الجمهور الذي يسمعها ما يليق بملكة فرح أنطون ومكانته الادبية ٠٠ وهي زلة نأسف لها ، ونعتبر بها ، ولكن علينا أن نذكر أنه كان يربح في الرواية الواحدة من هذه الروايات ما يعدل ربحه من جميع مؤلفاته ومترجماته الصالحة »(٣) ٠

بينما ناقد آخر يتهمه بأنه « قد تشبه بكتاب الفرنجة والروس فجعل ما صنفه من الروايات وسيلة لبث آرائه الدينية والاجتماعية ، فغلبت عليه الخطب والمواعظ والمجادلات

---

(١) احمد ابو الخضر منسى ـ المرجع السابق ص ٣٧ ٠

(٢) مارون عبود ـ المرجع السابق ـ ص٢٠ ٠

(٣) عباس العقاد ـ مطالعات في الكتب والحياة ـ المرجع السابق ص ٦٩ ٠

فضعفت في قصصه الميزة الادبية والفنية »(١) ٠

أما المدافعون عن فرح فانهم يستعيدون عبارته الشهيرة « نفعل ما يفعله الجيش اذا تحصن عدوه من جهة فيأتي اليه من جهة أخرى ٠٠ في الفنون الحربية ما يسمونه حركة التفاف ٠٠ ونحن نلجأ الى حركة التفاف ، نكتب كتبا وكراريس ونؤلف روايات ، نصنع روايات تمثيلية عن سكان جزيرة واق الواق والشعب ذكي يفهم » ٠

واعتبروا ذلك كله مجرد « حركة التفاف » ذكية من رجل مصمم على أن يقول شيئا ، بملى أن يرفع صوته في زمن مظلم ٠٠ ويذكرون أنه قدم الكثير من الروايات المترجمة عن الثورة الفرنسية وأحداثها ، وان هذا كان في حد ذاته شيئا بالغ القيمة ٠٠

وعلى أية حال ٠٠ وأيا كان تقييم هذه الروايات ، فهي مرحلة ٠٠ مرت سريعا ككل شيء في حياة فرح وعاد من جديد ليكتب في السياسة ٠٠ مقالات يعترف الجميع بأنها تستحق « أن تكتب بماء الذهب » ٠

***

٠٠٠ بقي بعد ذلك أن نتوقف برهة لنتأمل الفكر الذي دعا له فرح أنطون ، والذي أفنى حياته باذلا كل جهده أن يسجله كتابة على الورق ، موقنا أن الكلمات ذات قوة لا تقهر ٠

والمجالات الفكرية التي خاض فيها فرح متشعبة لكننا

(١) مناهل الادب العربي ـ المرجع السابق ص ٧ ٠

سنكتفي بالقاء حزمتين من الضوء على موقعين اساسيين من مواقع فكره ٠٠

موقفه من الدين ٠٠ وموقفه من التطور الاجتماعي ٠

مؤكدين منذ البداية أنها محاولة بالغة الصعوبة ، لان فرح كان مفكرا وكان صحفيا في وقت واحد ، مفكر يريد أن يقول شيئا لمواطنيه ، لكنه كان أيضا صحفيا تطارده المطبعة وتريد منه أن يقدم لها كل يوم جديدا ، وهكذا فقد كانت المطبعة تستحثه كي يلخص وينقل ويترجم آراء وأفكار متعددة في مختلف الموضوعات ، ذلك أن « المجلات والجرائد في الشرق ، مضطرة الى تنويع أبحاثها تبعا لاذواق قرائها ٠٠ ولو انفردت كل واحدة منها بمادة ، لما قامت لها قائمة فالتبعة اذا واقعة بالاكثر على الجمهور ، اذ ليس بين قرائه قراء يطلبون مادة واحدة ويكفون المجلة المستقلة بها »(١) ٠

ومن هنا فقد كان الصحفي يسابق المفكر ويصارعه ، لكن قيمة فرح الاساسية انه لم يفتح صدر مجلته الا للآراء التي يرى فيها ثمة فائدة ٠

وان كنا نلاحظ مثلا أنه بعد أن تحدث طويلا عن « نيتشه » مروجا آراءه على لسان الكثيرين من أبطال رواياته فانه لا يلبث أن يقول :

هذا كلام نيتش ان نيتش كا
ن مقوم المعوج والمنآد
في زعم بعض الناس ، أما مذهبي
فيه ، فأبقيه الى ميعاد(٢) ٠

(١) الجامعة ـ السنة الرابعة ـ ١٩٠٣ الجزء ٨،٧،٦ ـ ص ٣٢٦ ٠
(٢) مناهل الفكر العربي ـ المرجع السابق ـ ص ٦ ٠

كذلك فاننا نلاحظ أن فرحا قد تأثر الى حد كبير في تكوينه الفكري بآراء الفيلسوف الفرنسي الشهير « رينان »، وهو يتباهى دوما بأن رينان لم يكن منحازا لفكرة ما ، أو لحزب ما ، أو لمذهب ما « ذلك أن رينان عاش ومات بين الاحزاب ، فلم يكن منسوبا لاحدها . يروى أن سقراط الحكيم سئل من أي وطن أنت ؟ وربما رام سائله تعييره بذلك ، لانه كان يدعو الى وحدانية الله وهذه الدعوة مخالفة لتعدد الآلهة عند اليونانيين ، وكان عندهم من يسيء الى الآلهة فقد أساء الى وطنه . فاجاب سقراط وطني العالم .. وكذلك لو سئل رينان في حياته : ما هو حزبك ؟ لاجاب ولا شك : حزبي البشر كلهم ، لانني أخ لهم جميعا لا لفريق منهم . وهذا هو السبب في أنك ترى في أفكار رينان كثيرا من التناقض فانه يبش للملكي والجمهوري . والجاهد والمؤمن ، والقديم والحديث ، والتعصب والتساهل . ذلك أن فكره واسع رحب يستطيع فهم كل ما في تلك المتناقضات من الجمال والحقائق ، فيذكر محاسنها ومساؤها معا باستقلال تام وانصاف كامل كأنه واقف أمام الدينونة الاخيرة » .

والحقيقة أن فرحا كان يدرك ذلك الخطر ، بل انه قد نبه اليه صراحة « ان كثرة الكتاب في الشرق وتعدد الآراء وتنوع اللغات والتربيات قد جمعت في كتبه ومجلاته وجرائده جميع الآراء الفلسفية ومذاهب الادب الكتابي . وقد اجتمعت متناقضة متضاربة وأصبحت خليطا من جميع المذاهب في الكرة الارضية فنرى فيها مذاهب سبنسر وكنت ودروين وماركس والقديس توما وأفلاطون وأرسطو وأبيقور (الكلبي) كما يسميه

(١) مقال الروايات وانفعها لنا ـ مناهل الادب العربي ـ ص ٦٨ .

جمال الدين الافغاني . وفلاسفة الاسكندرية وشوبنهور ونيتشه وفنت وزولا وهيغو ... أي كل هذه المذاهب المختلفة ، نراها فيه متجاورة مشتبكة اشتباك الاسل .. وعلة هذا الاختلاط والاختباط عدم وضوح المبادىء بعد لابناء الشرق للاجتماع حولها أحزابا أحزابا كل حزب يعرف أصل مبدأه وفروعه ويجعل خطته الدفاع عنه وعنها لموافقتها مزاجه وأخلاقه وآراءه » .

وبعد أن يوجه هذه الدعوة الصريحة لقيام أحزاب على أساس مذهبي يقول « انما غرضنا هنا أن نوجه الانظار الى وجوب فصل المبادىء في الشرق وترتيبها ووضع كل واحد منها في مرتبته وبابه تسهيلا للنظر فيها واختبار أفضلها لنا ، فضلا عن أن الخلط بينها دليل على الجهل بها ، والجهل بها دليل على انحطاط العلم عندنا وكونه لا يزال في طفوليته »[1].

لكن فرحا رغم ادراكه خطأ هذا الخلط ورغم دعوته بالحاح الى التمييز بين المبادىء وهي دعوة كان يستند اليها في تقديم أفكاره عن الاشتراكية لقرائه.. الا انه ظل في أحيان كثيرة أسيرا لاسلوب رينان في التساهل مع كل الافكار بل انه يقول عن تساهله هذا «وهذا معنى قولنا عنه في صدر الكلام أنه مثال الفيلسوف الكامل »[2] .

ومن هنا تنبع الصعوبة في تتبع آراء فرح انطوان ومنهجه الفكري .

لكننا مع ذلك نرى أنه لا بد من المحاولة ..

ولنبدأ بموقفه من الدين ..

(١) المرجع السابق ـ ص ٧١ .

(٢) الجامعة ـ السنة الرابعة (١٩٠٣) ـ الجزء ٦ ، ٧ ، ٨ ـ المرجع السابق ص ٣٠٢ .

بين تساهل رينان ، ومادية ابن رشد
مروراً بالخيام .. وابن العربي .. وأبي العلاء

وقبل ان نبدأ الحديث في هذا الموضوع الشديد التعقيد، فاننا نود أولا أن نجيب على تساؤل هام ، يسري على فرح كما يسري على غيره من المفكرين الشوام ·· لماذا حرصوا على مناقشة قضية الدين بتفصيل شديد ، رغم علمهم بحساسية هذا الامر بالنسبة للمصريين ، ورغم تضاعف هذه الحساسية بسبب كونهم في أغلب الاحيان من المسيحيين ؟

وقد حاول عدد من المفكرين تقديم اجابة على هذا السؤال ··

فقال جمال أحمد «أن شميل وفرح أنطون قد تأثرا بالافكار التي سادت أوروبا في القرن الثامن عشر فتزعما اتجاها علمانيا يتصور أن الدين يعيق العرب عن النهوض الى مستوى الحضارة الغربية ، وان السبيل الوحيد للتقدم هو تخليص المجتمع من نفوذ الدين »(١) ·

---

1 — G. Ahmed. The Intellectual Origins of Egyptian Nationalisms Oxford. 1960. P. 41 .

ويقول كامل عسلي « ان الارساليات البروتستانتية ، والكنيسة المارونية التي مارست نفوذا كبيرا في لبنان قد خلقت جوا من الارهاب كي تحكم قبضتها على اتباعها وقد أدى هذا بالمفكرين اللبنانيين الى أن يشنوا هجمات عنيفة على التعصب والطائفية »(١) ·

ويحاول العقاد أن يقدم لنا اجابة أخرى « ولعل سائلا يسأل ·· ولماذا التحدي البين للنفوذ الديني خاصة من خواص النشأة السورية * ؟ فأقول لهذا المتساهل انني كنت كذلك أعجب لهذا الامر ، وأستغرب الغيظ الشديد الذي تتوهج به كتابة السوريين الاحرار حين يحملون على النفوذ الديني في بلادهم ويصفون تغلغله في كافة شؤون قومهم وكنت لا أعرف لذلك علة حتى تذكرت القوة التي يقبض على زمامها رجال الدين في سوريا فخطر لي أنه لا عجب ! لان رجال الدين هناك ربما كانوا أقوى الطوائف الدينية في العالم وأوسع رعاة الكنائس اشرافا على حياة أتباعهم · فقد جمعوا بين الزعامة في الدين والزعامة في السياسة والزعامة في العلم · وناهيك بها من سطوة هائلة تغري بالتحدي وتغري بالمناجزة ! أما سبب اجتماع هذه السطوة لهم فللحوادث التاريخية التي حدثت عقب غارات الصليبيين وعقب الاتفاق على الامتيازات الاجنبية دخل عظيم فيه ·

وخلاصته القريبة أن طائفة رجال الدين كانت في البلاد السورية ولا تزال معقد آمال الشعب (المسيحي) في الحرية

---

(١) كامل عسلي ـ المرجع السابق · ص ٢٦٣ ·

* كان لفظ «سوريا» يطلق في مصر في ذلك الحين للدلالة على منطقة الشام كلها بما فيها لبنان وفلسطين ·

السياسية ، لما بينها وبين الحكومة الفرنسية والحكومات الاوروبية الاخرى من صلة معروفة ، وانها كانت ولا تزال قائدة الافكار ، وقدوة المسترشدين لانها منشئة المدارس وطابعة الكتب ، ومربية الصغار والكبار . واذا اجتمعت لفئة أزمة السطوة الروحية من كل جانب كما اجتمعت لفئة القسيسين السوريين ، فغير عجيب ألا يرضى عنها وأن يتبرم بها فريق الشبان المتعطشين الى المعرفة الحرة ، التواقين الى الآراء المتجددة من أصحاب النفوس الابية والعقول الطليقة والاخلاق المعتقة من أسر التقاليد والعادات ، وغير عجيب أن يجعلوا تحديها والاغراء بها شغلهم الشاغل في كل ما يدرسون ويكتبون »(١) .

ولقد كان هذا الموضوع بالفعل الشغل الشاغل لفرح أنطون وغيره من المفكرين الشوام . لكننا نضيف الى ما أورده هؤلاء الكتاب سببا آخر .. هو أن هؤلاء المفكرين كانوا يجدون أنفسهم في محاولاتهم للتجديد بين فكي كسارة بندق لا ترحم .. سطوة رجال دينهم ، وسطوة دينية أخرى ، هي سطوة السلطة العثمانية التي حاولت أن تستر كل ما ارتكبته من ارهاب وجرائم بغلالة من الدعاوى الدينية .

وبين فكي كسارة البندق هذه حاول المفكرون الشوام أن يجدوا لانفسهم مخرجا بعيدا عن الدين .

ويروي فرح أنطون حادثة بالغة الدلالة في هذا الصدد . في كتاب مفتوح وجهه الى والي بيروت السابق معلقا على أحداث الفتنة الطائفية هناك ، وكان السبب فيها أن أحد الولاة الاتراك حاول الايقاع بوال آخر فدبر هذه المصادمات ..

(١) البلاغ ـ ٥ مارس ١٩٢٤ .

يقول فرح في رسالته هذه « ان الجامعة نشرت في جزئها الخامس رواية عنوانها « الوحش الوحش الوحش أو سياحة في أرز لبنان » وفي هذه الرواية فصل طويل بشأن الديور والرهبان .. وقد جاء في هذا الفصل أن الديور لا نفع فيها اليوم للناس اذا لم تغير خطتها . فلما حدثت حادثة بيروت تألمنا وأخرنا ارسال الرواية الى لبنان ، لانها لو وصلت في ابان الحادثة لقوبلت بالسخط والضحك . وربما لا نعدم هنالك راهبا متحمسا يقف ويقول « نفع الديور في هذا الزمان ظاهر للعيان . فانها تفتح أبوابها لالوف اللاجئين من بيروت فتأويهم وتغذيهم وتسكن قلوبهم »(١) .

وعلى أية حال فان الموقف من الدين أو تجاهه كان محورا أساسيا في دعوة هؤلاء المفكرين وخاصة فرح أنطون ، بحيث لا يمكن الحديث عنه بغير التأمل في هذا الموضوع بصورة متأنية .

فكيف كان فرح يعالج هذا الامر ؟

قلنا انه كان متأثرا برينان .. وكان يمجد موقفه من الدين ، ولنتأمل ماذا كتب هو أو ماذا نقل عن رينان .

ان جوهر القضية عند رينان هو البحث عن العدل والحق والحقيقة ، هو الدفاع عن العلم والحرية ، وبهذه المقاييس كان يصوغ موقفه . « ولقد ندد رينان بالجمهورية والديمقراطية بعد حرب السبعين ، لان الغلاة أتوا فيها كثيرا من المنكرات التي أغضبته وفضلا عن ذلك فذوقه أرستقراطي نحيف ، ولذلك كان يود لو تكون حكومة البشر ملقاة الى

(١) كتاب مفتوح الى عطوفتلو رشيد بك والي بيروت قبلا ووالي بورصة الآن ـ الجامعة ـ السنة الرابعة ١٩٠٣ ، الجزء ٦ ، ٧ ، ٨ ـ المرجع السابق . ص ٣٣٦ .

عصبة من العلماء والفلاسفة ، ويكون ملكها عالما أيضا وغاية في الكمال ، ولكنه لما رأى بالخبرة أن العلم يترقى في الجمهورية أكثر مما يترقى مع الملكية لان الجمهورية تطلق له الحرية والملكية قد تقيده بقيود حديدية صار يفضل الجمهورية ٠

وعلى ذلك فحرية العلم أي حرية الفكر والنشر مقياس الافضلية عنده ٠ ورأيه في ذلك مبسوط في كتابه « المباحثات الفلسفية » ٠٠ وفي احدى مباحثات هذا الكتاب قصة كاليبان وبروسبيرو ٠ وبروسبيرو هذا هو ملكه العاقل الكامل ٠٠ وأما كاليبان فهو رجل قاصر مشوه الدماغ وهو كناية عن الشعب ، فقام كاليبان وأسقط بروسبيرو عن ملكه وحل محله قبل أن ينضج رأيه وتصلح حاله وقال رينان « انني أحب بروسبيرو ولكنني لا أحب الذين يريدون ارجاعه الى ملكه ، فان كاليبان (مع حالته القاصرة) ينفعنا أكثر من بروسبيرو اذا عاد الينا على يد الجزويت والجنود الحبرية ٠ وذلك لان عودته تكون ضغطا علينا لا نهضة لنا ٠ اذن فليبق كليبان » (١) ٠

وعلى أية حال فان رينان قد لخص كل موقفه من الدين فيما أسماه فرح « صلاة رينان » وهي مخاطبته لآلهة العقل والحكمة ٠٠ للالهة أثينا ، رمز العقل ٠٠ حيث يقول لها « لقد رباني كهنة دين غريب جاءنا من سوريا وفلسطين ٠ وكان هؤلاء الكهان عقلاء وحكماء فعلموني قصصا طويلة عن « خرونوس » الذي خلق الكون ، وعن ابنه الذي جاء العالم كما قالوا ٠٠ أما هياكل هؤلاء الكهنة فهي أعلى من هيكلك ثلاث مرات ٠٠ وهيئتها كهيئة حرش ، ولكنها ليست وطيدة

(١) المرجع السابق – ص ٣٠٢ ٠

لانها تنهدم كلما مر عليها ٥ او ٦ مائة سنة فهي من صنع البرابرة الذين يظنون أنه يمكن صنع شيء ثابت بغير القواعد التي وضعتها يا الاهة العقل ٠٠ لكن تلك الهياكل كانت تعجبني ، فانني لم أكن قد درست فنك الالهي بعد » ٠

غير أن التمسك بالعقل والدفاع عنه مخاطرة صعبة ٠٠ ولهذا يمضي رينان قائلا « ثم أنك تعلمين كم صارت خدمتك صعبة في الارض ٠ فان كل استقامة ذهبت منها ٠٠ وقد ملك السيكيثيون * العالم ٠ ولم تبق فيه جمهوريات مؤلفة من أناس أحرار ٠ بل كل ما فيه ملوك خرجوا من دم ثقيل ٠ جلالات لو وقع نظرك عليهم لضحكت منهم ٠ وكذلك مدعون ثقلاء يسمون خفيفي الرأس ٠ كل من يخدمك ، وقد تألف من كل الهنات والدنايا عصبة طوقت العالم بلفائف من رصاص تكاد تخنق النفوس ٠٠ حتى الذين هم أنفسهم ويخدمونك كم هم يستحقون شفقتك » ٠

ثم يأتي الحديث عن الديمقراطية والعدل باعتبارهما السبيل الوحيد لسعادة البشر ٠٠

« أنت وحدك فتية طاهرة ، نقية أيتها العذراء الجميلة ، أنت وحدك قوية يا الاهة النصر ٠ أنت وحدك تحفظين المدن وتحرسينها ٠ فان لك من « المريخ » كل ما يلزمك من القوة ، ولكن لا غرض لك غير السلام ٠ فيا واضعة الشرائع العادلة ٠٠ يا أيتها الديمقراطية التي مبدأها اساسي أن كل خير هو آت من الشعب ، وان كل مكان ليس فيه شعب يوحي الى النفوس عظائم القرائح فليس فيه شيء ٠٠ علمينا كيف نستخرج الماس من الجموع الجاهلة »

* السيكثيون قبائل متوحشة كانت في عهد اليونان ٠

.. وهكذا فان الشعب هو طريق هذا الرجل .. طريقه الذي نسي كل شيء عداه .. « انني اؤمن بك ايتها الالهة ، ومتى كنت قويا فيك فانني أقاوم كل نصح يغرني . أقاوم ارتيابي الذي يجعلني أشك في الشعب . أقاوم اضطراب فكري الذي كلما وجد الحقيقة لا يكتفي بها ، ويدفعني الى البحث عنها أيضا . أقاوم هوسي الذي يمنعني من الرضى بحكم العقل ، كلما حكم العقل حكما قاطعا ، ويحرم نفسي الراحة .. فيا مثال الكمال الذي يبنيه أصحاب القرائح العظمى في مصنوعاتهم الكبرى ، انني أفضل أن أكون الاخير في منزلك على أن أكون الاول في سواه » .

.. وهكذا يتخذ حديثه الى العقل والعلم طابعا صوفيا صرفا .

« فاعلمي أنني سأوقف نفسي على خدمتك ، وأربط روحي في هيكلك ، سأنسى كل نظام غير نظامك ، وأجعل غرفتي بجانب غرفتك ، بل أعظم من ذلك انني سأجعل نفسي (اذا قدرت) متعصبا متحيزا اكراما لك . فلا أحب شيئا غيرك . وهوذا انني سأتعلم لغتك وأنسى كل لغة سواها . سأكون ظالما لكل شيء لا يتعلق بك . سأجعل نفسي أحقر خادم لاحقر أبنائك . سأمدح سكان أرضك وأحب فيهم كل شيء حتى عيوبهم » ..

.. العقل وحده هو طريق رينان .

« سأسلخ من قلبي كل شيء لا يكون عقلا وصناعة مجردة ، سأعدل عن حب أمراضي والارتياح الى الحمى التي تحرقني : فساعديني أيتها الالهة وانقذيني » .

لكن سلوك طريق العقل ليس سهلا .. ولهذا يقول رينان :

« ولكم من المصاعب تعترض طريقي . فانني مضطر

الى تغيير عادات عقلية كثيرة ونبذ تذكارات جميلة من نفسي . فسأجرب ذلك ، وان كنت غير واثق من نفسي . ذلك لانني أبطأت في معرفتك يا ذات الجمال الكامل ، فأخشى أن يعاودني ضعفي » .

ان رينان يريد أن يتمرد على الدين ، وأن يتمسك بالعقل وحده ، لكن المسألة ليست بهذه السهولة فللدين تأثير قوي على نفسه .. فالقساوسة ورجال الاكليروس الذين يسميهم « كهان دين غريب أتى من سوريا وفلسطين » «يغنون أغان ما زلت أذكر بعضها .. أنظري أيتها الالهة انني حينما أتذكر هذه الاغاني يتفطر قلبي حنوا وأكاد أجحدك ، فصفحا عن هذا الضعف المضحك .. انك لا تقدرين على فهم السحر الذي أودعه السحراء البرابرة في هذه الابيات الشعرية ، ولا أن تدركي مبلغ ما أعانيه حين سماعها لاتمكن من اتباع العقل المجرد وحده » .

لكن .. ثمة شيء محير في طريق العقل ..

« فانه لو كانت احدى الهيئات الاجتماعية ، أو احدى الديانات ، أو احدى الفلسفات قد حازت الحقيقة المطلقة لكانت تغلبت على ما بقي ، وعاشت وحدها في عصرنا الحاضر . اذا فكل الذين ظنوا أن الحقيقة في جانبهم منذ البدء حتى اليوم قد أخطأوا في هذا الظن ، وهذا أمر واضح كل الوضوح .. فهل من الحكمة أن نعتقد في نوبتنا أن الحق وان المستقبل لا يحكم علينا كما نحكم على الذين تقدمونا .. هذه هي المسبة التي تجول في فكري الفاسد ، ان الاشياء اذا كانت صحيحة سليمة من كل جهة مثلك فانها تدعو الى الملل والسأمة ..

.. وهكذا تمتزج المحاولات العقلانية بسفسطة واضحة تكاد تفسد كل شيء .. ومع ذلك فان هذه الحيرة المؤلمة التي

تضني الرجل تعلمه شيئا أساسيا ، وهو أنه في حين أن « أحلام كل الحكماء فيها شيء من الحقيقة . وكل شيء في هذه الارض ليس الا رمزا وحلما فان الآلهة تذهب وتمر كالناس ، وليس يحسن أن تبقى أبدية . والايمان الذي كان للانسان لا يجب أن يكون له قيدا » . في حين أن كل شيء نسبي فان شيئا واحدا يمتلك الحقيقة الكاملة هو الشعب ، « فلا دموع حقيقية الا دموع الشعب »(١) .

ويكاد فرح أنطون ينهج نفس النهج ، بنفس الافكار وربما بنفس الالفاظ .

بل وربما كانت خطبة « فرح أنطون » أمام شلالات نياجرا مجرد تكرار (أكثر تقدما من الناحية الفكرية والاجتماعية) لصلاة رينان امام الالهة أثينا الاهة العقل ...

وفي كتابات كثيرة أخرى نلحظ تأثر فرح أنطون بأفكار رينان ، بل وترديده لها ترديدا مباشرا .

وفي مدخل روايته « أورشليم الجديدة » أو فتح العرب بيت المقدس . والرجل المريض والاسرائيلية الجميلة فيها « يحاول فرح أن يقدم « صلاة » مماثلة لصلاة رينان .. ويوجه حديثه الى « المسيحية » التي يرمز اليها « بالحسناء المريضة » « وا أسفاه ، عاد الغالب الى عادات المغلوب . ان المادة قويت على الروح .. والمصالح على المبادىء والتقليد على الفكر والعقل . فهاتوا لنا معولا آخر للهدم مرة ثانية . الينا يا ملائكة السماء بجراح جديد لمداواة هذه الحسناء المريضة ، ولكن رحماكم فلتكن سكين هذا الجراح نحيفة ، اننا نشفق على جسمها النحيل وقلبها الرقيق وجمالها الساحر ونفوس

---

(١) راجع النص الكامل . مجلة الجامعة . السنة الرابعة ١٩٠٣ — العدد ٦ ، ٧ و٨ ، المرجع السابق ص ٣٠٦ وما بعدها.

الملايين العديدة المتعلقة بها » .

فالمسيحية في اعتقاد فرح أنطون بحاجة الى مدد جديد ولكن من أين ..؟

« هات روحك يا بوذه لتعلمها الصبر والقناعة ، هات فكرك يا كونفوشيوس لتعلمها الحكمة . هات بلاغتك الالهية يا أفلاطون لتدخل الى عروقها دم الفلسفة ممزوجة بالانوار السماوية ، هات عقلك يا أرسطو لتقوية عقلها . هاتوا يا حكماء منفيس والاسكندرية وأثينا وروما كل حكمتكم وفلسفتكم لعلها تشفى . واياكم أن تقولوا أنها في غنى عن كل ذلك بما لديها من المبادىء الساذجة فانها نسيت ما لديها ونسيت الفطرة والسذاجة . نعم ان فاها لايزال يردده ويترنم بألفاظه ولكن يا للاسف ان قلبها لم يعد يفهمه ولا يقتنع به . ولذلك ذهبت منها صحتها وجمالها »(١) .

ثم يقدم فرح تصوره لاسباب تدهور حكم المسيحية في بيزنطة وسبب انتصار الزحف الاسلامي على المسيحيين في معركة بيت المقدس « يا سلطنة بيزنطة التي ملأت الدنيا أبهة وسطوة وجلالا ، استعدي فقد دنت آخرتك ، ولا تلومي أحدا غير نفسك ، لماذا أهملت شعبك لتشتغلي بالمجادلات الدينية العقيمة ؟ ، لماذا جهلت أن كل بناء لا يبنى على اصلاح الاحوال الشعب بناء ضعيف يتداعى في مدة قصيرة ؟ ، لماذا حصرت كل قواك في الاختلافات على خلافة الملك وانتقال السلطنة ..؟ لماذا هجرت الروح والفكر الذي يجعل الافراد أقوياء والشعوب منيعي الجانب سعداء ؟

---

(١) فرح انطون . اورشليم الجديدة او فتح العرب بيت المقدس . والرجل المريض والاسرائيلية الجميلة فيها . طبعة الاسكندرية فبراير ١٩٠٤ . ص ٢ .

ان الشعب الحديث الخارج من رمال بلاد العرب قد استولى على ذلك الفكر الذي هجرتيه وهجم عليك بسلاحك بريئا في أول نشأته من تلك النقائص التي أودت بك . لقد زحف يمثل الوحدة والعصبية والاصلاحات الشعبية والحياة الروحية والمعيشية الطبيعية والمساواة والاخاء والحرية .. ومن فرط ثقته من نفسه ومن مبدئه يظن أنه وحده سيمثل الوحدانية .. وبهذه المناقب سيستولي على الكرة الارضية »

لكنه وهو يمتدح « المسلمين » كل هذا المديح الغريب على رجل مسيحي النشأة فانه لا يعفيهم أيضا من اللوم والنقد « فسيبقى هذا الملك حتى تفارقه تلك المناقب كما فارقتك (المسيحية) فيصيبه حينئذ ما أصابك » .

ثم يحبس الجميع مسلمين ومسيحيين أنفاسهم منجرأة فرح أنطون وهو يمضي قائلا في بساطة « .. وفي ذلك الوقت تنطرحان كلاكما على الارض أخوين في المصاب تنظران الى الامم والمبادىء الاخرى التي تجيء بعدكم وتقوم على آثاركم »(١) .

لكنه رغم ذلك كان يدعو كل الامم على اختلافها الى أن تقول « المجد لله في الاعالي . لان الله خالقنا عظيم » .

تماما كما فعل « رنان » بعد أن قال صلاته أمام آلهة العقل .. واضعا نفسه ليس فقط في مواجهة رجال الدين ، وانما في مواجهة فكرة الايمان ذاتها ، بعد أن وضع نفسه في موضع المنكر للدين نراه يوجه حديثه الى رجال الاكليروس « فيا أساتذتي الاعزاء .. الذين مات أكثرهم الآن . اني أراكم أحيانا في أحلامي ، ولكنني أراكم كتذكار حلو عندي لا كتبكيت

(١) المرجع السابق ـ ص ٣ .

وتوبيخ . فانني لم أخنكم بقدر ما تظنون . نعم قلت ان تاريخكم غير كاف . وفلسفتكم أضعف من الفلسفة التي تعلمنا أن لا نقبل شيئا خاصا وراء الطبيعة ، ومع ذلك فلا أزال تلميذا لكم ، فانني مثلكم أعتقد أن الحياة لا قدر لها ولا قيمة الا بصرفها في الاخلاص والحقيقة والخير . الا انكم تفسرون هذا الخير تفسيرا ضيقا وتجعلون هذه الحقيقة مادية مجسمة . وان كنتم مصيبين من حيث أساس الموضوع » (١) .

وهو يقول في كتابه « أوراق منثورة » : « ان نفسي ستسكن بعد وفاتي في خرائب كنيسة القديس ميخائيل ، بشكل طائر البحر الابيض ، وسيبقى هذا الطائر حائما في الليل حول أبواب الكنيسة ونوافذها تائها عن المدخل شاكيا متألما . وهكذا تبقى نفسي المسكينة حائمة متألمة حول هذه الاكمة الى الابد » .

لكن لماذا تظل حائمة دوما على أبواب الكنيسة ، تائهة دوما عن مدخلها ؟. تلك هي العقدة الحقيقية في فكر رينان وفي فكر فرح أنطون على السواء ..

ويحاول رينان أن يضع يده على نقطة الضعف في فكره .. على الجرح الذي لم يستطع ان يقدم له اي دواء شاف « هل الحاجة الابدية التي في ضمائرنا الى ما وراء الطبيعة هي وهم وخيال ؟ كلا ثم كلا . فان من ينفي ذلك نفيا قاطعا مثله مثل من يثبت ذلك اثباتا قطعيا . لانه اذا كان لم يثبت عقليا أن للكون نفسا ، فأيضا لم يثبت أنه ليس هناك نفس له ، فكل ما نعلمه أننا لا نعلم شيئا ، هذا كل ما نقدر أن نقوله عما

(١) الجامعة ـ السنة الرابعة . ١٩٠٣ ـ العدد ٨،٧،٦ ـ المرجع السابق . ص ٣٠٤ .

وراء الطبيعة فلا ننكرن شيئا ولا نثبتن شيئا . بل فلنتمسك بالامل » .

***

فاذا ما ابتعدنا — أو حاولنا أن نبتعد بأنفسنا قليلا — عن المنزلق الخطر فاننا نجد أن فرح أنطون كان يدعو الى تسامح ديني .. مستشهدا في كثير من كتاباته بأقوال محيي الدين ابن العربي .

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلا كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لاوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه ، فالدين ديني وايماني

ويعلق فرح على هذا البيت الاخير « قوله فالدين يعني الدين المطلق وهو ما يسميه فلاسفة أوروبا « الديانة الطبيعية» فرحم الله الامام التقي الشيخ محيي الدين على هذا القول الجميل »(١) .

وهو يدرس أيضا أفكار وكتابات عمر الخيام ثم يستخلص منها نفس الفكرة « ليست هياكل الاصنام والكعبة سوى أماكن للعبادة . وما أصوات الاجراس الا تسبيح بحمد

(١) مناهل الادب العربي . المرجع السابق . ص ٣٦ .

القادر على كل شيء .. وكذلك محراب الجامع والكنيسة والهيكل والصليب كلها ليست في الحقيقة الا أشكال مختلفة لحمد الله وعبادته »(١) .

وهو يتابع أيضا باعجاب بالغ خطى أبي العلاء المعري ويقدمه الى قرائه أكثر من مرة كواحد من أكثر فلاسفة الفكر العربي عبقرية وتحررا .

وفرح أنطون يريد أن يكون سلاحا في خدمة الحقيقة والشعب .. ويوجه دعواته الى « العذراء » (رمز العقل) «في عروقك اذا يا أيتها العذراء الجميلة شيء من دماء شرقية ، فنناشدك بحق حرمة هذا النسب القديم أن تبعثي الى الشرق جدك القديم شيئا من سناء نورك العظيم ، علمينا أن ننسى أهواءنا ، ومصالحنا الخصوصية لما نضع أنفسنا في موضع خدمة المصلحة العمومية . علمينا أن نجهر بمعتقداتنا أيا كانت ولا نخاف في ذلك قوات الارض والسماء ، لئلا نكون خونة لك ضعفاء جبناء . أفهمينا معنى الحق والعدل والواجب والعقل لنتخذها نجوما تهدينا في ظلمات هذه الحياة . وجامعة جديدة تقوم لدينا مقام كل جامعة ، بدل انقسامنا وتفانينا في تأييد المصالح والجهالة والاهواء ... افتحي عيوننا لنرى أننا في طلبنا الاصلاح في الشرق يجب أن نكون مخلصين قلبا وقالبا مهتمين بالجميع لا بفئة واحدة .. واكمالا لهذا الاصلاح بثي فينا يا أيتها الالهة القادرة ذلك الروح الذي لا خلاص لنا بدونه وهو روح التساهل المطلق .. ونعني بهذا التساهل اعطاء جميع الآراء والافكار حق الظهور في الشرق بين الناس لتكمل بذلك الحركة الشرقية تمهيدا للنتيجة العظيمة التي

(١) المرجع السابق ص ٣٥ .

نخرج منها بعد استيفاء فعلها واختمارها »(١) ٠

وقد خاض فرح أيضا معركة فصل الدين عن الدولة ، وفصله عن السياسة ، وفصله عن التعليم « ذلك أن الدين علاقة خصوصية بين المخلوق والخالق ، فالمسيحي حر في أن يعبد الله كما يشاء وليس من حق الدولة أن تتداخل في شيء من ذلك ، ولكن اتخاذ الامور الدينية سبيلا الى الامور السياسية في الدولة ، أمر يوجب على الدولة المداخلة ولكي تمكنها هذه المداخلة يجب عليها الاهتمام باقامة العدل على السواء بين الجميع ومعاملتهم سرا وجهرا معاملة الاخوة الحقيقيين ٠ فبهذه الطريقة ينفصل نبهاء المسيحيين شيئا فشيئا عن الاحزاب الدينية السياسية الخديمة فيكونون أعوانا لنا ٠ وبذلك تسقط عنهم وعنا السلطات الدينية » ٠

وفي التعليم « يجب وضع الدين جانبا ، أي أن كل مدارس الدولة التي يدرس فيها الفريقان (المسلمون والمسيحيون) درسا واحدا ويتلقنان عيها مبادىء متشابهة يجب أن تكون كالمدارس الفرنسوية معزولة عن الدين عزلا قطعيا ٠٠ أما الدروس الدينية والمبادىء الدينية فتدرس في المعابد والمنازل »(٢) ٠

وهكذا كان « فرح » يمشي على الشوك بحثا عن مفهوم جديد للدين ، وفي طريقه الشديد الوعورة تعرف على ابن رشد ، لعله أراد الاستفادة من فلسفته وكتاباته فهما متقدما للاسلام ، ولعله كان يبحث عن عبره ، لما يعنيه خوض طريق

(١) الجامعة ـ المرجع السابق ص ٣١٥ ٠
(٢) كتاب مفتوح الى عطوفتلو رشيد بك ـ المرجع السابق ٠ ص ٣٣٥ ٠

العقل المليء بالشوك ، لانه « مكتوب لكل أصحاب العقول الذين يمتازون على البله والبلداء وأصحاب الدعوى في هذا العالم أن يتكاثر حسادهم لسبب ولغير سبب »(١) ٠

ويحكي فرح وقلبه يقطر دما ، كيف اجتمع فقهاء « قرطبة » وقضاتها ليجادلوا ابن رشد في حضور الخليفة المنصور ثم قرروا في النهاية « أن تعاليمه كفر محض ، ولعنوا من يقرأها ، وقضوا بنفيه من قرطبة » ٠٠ وقيل أنه نفي الى بلدة « لوسنة » ٠٠ وقيل أنه قبض عليه في « فاس » محاولا الهرب « وأوقفوه على باب المسجد ليبصق عليه كل من يخرج وكل من يدخل » ٠

ويدين فرح ذلك كله مؤكدا أنه « لا يجوز للناس أن يمنعوا العقل البشري من الانطلاق في جو الفكر لطلب الحقيقة والعلم والنور بالآلات العقلية التي منحه الله اياها دون تضييق على هذه الآلات وايقافها في مجراها ٠٠ ولذلك يجب على كل واحد من البشر أن يحتمل رأي غيره وان كان مخالفا لرأيه » ٠

بل انه يهاجم رجال الدين بنفس سلاحهم ٠٠ فهؤلاء الذين يمنعون الانسان من التفكير الحر يرتكبون ضربا « من ضروب الكفر بنعم الله تعالى لانه يقتضي اطفاء نور العقل الذي خلقه الله ووضعه في الانسان كما توضع المنائر على شواطىء البحار ، أفتطفؤون المنارة في الانسان ثم تقولون له سر واعتقد أنك سائر في الطريق القويم ؟ »(٢) ٠

وهو بعد ذلك يقدم لقرائه وبشكل مفصل فكر ابن رشد وفلسفته وآرائه في مادية الكون ويبرز أوجه الخلاف بينه

(١) مناهل الادب العربي ـ المرجع السابق ـ ص ٨٢ ٠
(٢) المرجع السابق ص ٩٢ ٠

وبين فلاسفة المتكلمين ٠٠ ويقدم تلخيصا وجيزا بليغا لرأي ابن رشد في مادية الكون يقول فيه « ان كل فعل يفضي الى خلق شيء انما هو عبارة عن حركة ٠ والحركة تقتضي شيئا لتحركه ويتم فيه بواسطتها فعل الخلق ٠ وهذا الشيء هو في رأيه المادة الاصلية التي صنعت الكائنات منها ، ولكن ما هي هذه المادة ؟ هي شيء قابل للانفعال ولا حد له ولا اسم ولا وصف ٠ بل هي ضرب من الافتراض لا بد منه ولا غنى عنه ٠ وبناء عليه يكون كل جسم أبديا بسبب مادته أي أنه لا يتلاشى أبدا لان مادته لا تتلاشى أبدا ٠ وكل أمر يمكن انتقاله من حيز القوة الى حيز الفعل لا بد له من هذا الانتقال والا حدث فراغ ووقوف في الكون ٠ وعلى ذلك تكون الحركة مستمرة في العالم ، ولولا هذه الحركة المستمرة لما حدثت التحولات المتتالية الواجبة لخلق العالم بل لما حدث شيء قط وبناء عليه فالعامل الاول الذي هو مصدر القوة والفعل ، أي الخالق سبحانه وتعالى ، يكون غير مختار في فعله لان الحرية والاختيار يفترضان كونه محدثا ، والخالق تنزه عن أن يكون حديثا »(١) ٠

ولا يستطيع فرح أن يخفي انبهاره من شجاعة ابن رشد وهو « يكتب كفيلسوف ، ويدخل بجرأة الاسد الى كهف الحقيقة المحجبة ولا يبالي » مناقشا فكرة الخلود وفكرة البعث مؤكدا أن الخلود للانسانية وحدها أي « للعقل الفاعل العام » أما « العقل الخاص المنفعل » فان من صفاته الفناء مع جسم الانسان وبناء عليه يكون « العقل العام الفاعل (الانسانية) خالدا ، والعقل المنفعل الخاص (الانسان)

(١) المرجع السابق ٠ ص ٩٣ ٠

فانيا ، وبناء على ذلك لا يكون بعد الموت حياة فردية » (١) ٠

وقبل أن يختتم فرح أنطون بحثه المطول عن فلسفة ابن رشد يسأل نفسه « هل مذهب هذا الفيلسوف صحيح ؟ » وهو يضع نفسه بذلك في مأزق شديد الحرج فان قال « نعم » فقد عرض نفسه للوم شديد من مجتمع لا يحتمل مثل هذا الجدل ، وان قال « لا » فقد تنكر لكثير من آرائه وآراء أستاذه « رينان » ، ولهذا فقد حاول أن يقدم اجابة مبهمة بعض الشيء قائلا « فالجواب عن ذلك أن القارىء يخطىء اذا كان يسأل عن صحة كل مذهب من مذاهب الفلاسفة أو فساده ٠ فان لكل واحد من الفلاسفة الذين يقفون حياتهم للبحث فيما وراء الطبيعة مذهبا خاصا وفلسفة خاصة يناقض مذهب الآخر وفلسفته ٠٠ ونجد في بناء كل واحد منهم رملا وصخرا أي ضعفا وقوة » (٢) ٠

وبرغم هذه المحاولة الحريصة للتنصل من ابداء رأي صريح في فلسفة ابن رشد ، فقد قامت الدنيا وهاج عليه المسلمون والمسيحيون على السواء ، ودخل في معركته الكلامية الشهيرة مع الامام الشيخ محمد عبده التي قيل أنها واحدة من أشهر المحاولات الفلسفية في تاريخ مصر الحديث ٠

والحقيقة أن فرحا كان يقدر الشيخ محمد عبده تقديرا كبيرا ، ويقدر آراءه المتحررة بل ويمتدحها أيضا « فاننا نطالع بامعان لا مزيد عليه كل ما تنشره رصيفتنا مجلة المنار الغراء من الدروس التي يلقيها فضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في الجامع الازهر تفسيرا للقرآن ،

(١) المرجع السابق ص ٩٩ ٠

(٢) المرجع السابق ص ١١٥ ٠

فنجد في كل صفحة من صفحاتها روحا جديدا اذا تم انتشاره كان بمنزلة اصلاح عظيم في العالم الاسلامي »(١) .

ويرى البعض أن الشيخ محمد عبده قد استدرج الى النقاش على غير رغبة منه ، قائلين أن مبعث المشاحنة كان النجاح الباهر للجامعة « فبعث هذا النمو الباكر والشهرة العاجلة على حسد الحاسدين لفرح . فتربصوا له وتتبعوا عثراته ، وأثاروا على آرائه الجريئة الصالحة حربا عوانا ، وتنقصوا من فضله ما تنقصوا وهجنوا من مجلته ما هجنوا وكان في مقدمة هؤلاء الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنار» .

ويصلون من ذلك الى أن رشيد رضا قد أقحم الشيخ محمد عبده في هذه المجادلة إقحاما « فقامت بينه (رشيد رضا) وبين فرح خصومة لدود ، ومطاحنة مشتدة ، أولج فيها على غير ما يرضى ويحب حكيمنا الشيخ محمد عبده وكان محور المطاعنة والمشاحنة ما نشره فرح في مجلته عن فلسفة ابن رشد الاندلسي واضطهاد الاسلام له وفلسفته »(٢) .

« وعصب فرح رأسه .. وانصرف ثلاثة شهور الى درس هذا الموضوع حتى فقد النوم والقابلية » .

وخاض غمار المجادلة حتى مداها ..

وأثارت شجاعة فرح في الجدل اعجاب الكثيرين ، لكنها أحفظت عليه الكثيرين أيضا .. وحاول البعض أن يصورها جدالا بين مسلم ومسيحي واحد ينصر الاسلام والآخر يطعن فيه .

ويكتب حافظ ابراهيم الى الامام بيتا من الشعر يثير في نفس فرح كثيرا من الالم :

---

(١) المرجع السابق ص ٩٢ .

(٢) احمد ابو الخضر منسى – المرجع السابق ص ٢٠ .

وأنت لها ان قام في الغرب مرجف
وانت لها ان قام في الشرق مرجف

ويغضب فرح ويكتب الى حافظ معاتبا « حافظ !حافظ! أنت لم تحاسب نفسك لما نظمت هذا البيت » (١) .

والحقيقة أن فرحا كان أبعد ما يكون عن التجني على الاسلام .. ذلك أنه قد اختط لنفسه في حديثه عن « الاديان طريق الحيدة التامة والبعد عن التعصب . »

وفي مقدمته لرواية « اورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس » وهي رواية تتحدث عن صراع مرير بين المسلمين والمسيحيين فيقول « المؤلف لا يدعي في هذا الكتاب فضلا أو مزية ، ولكنه يصرح بأنه بذل جهده للجهر بحرية تامة بكل ما يحب الجهر به عند الاشتغال بمسائل مهمة خطيرة كالمسائل التي في هذا الكتاب . وطلب الحقيقة بين كل الاحزاب باستقلال تام ، كأن الكاتب غير منسوب الى أحدها »(٢) .

وفي رواية أخرى « السلطان صلاح الدين ومملكة أورشليم » نجد حوارا بين اثنين من أبطال الرواية يجري على النحو التالي :

« **بلوندل** : لا تنسى أن امتلاكنا هذه البلاد (القدس) فرض علينا .

ماريا : فرض عليكم أن تحكموا هذه البلاد . وفرض على أهلها أن يذودوا عنها .. قد يقال هذا عن أرض لا أناس فيها في القمر والمشتري أو غيره من كواكب السماء ، أما الارض التي يسكنها العباد ، وتحتوي

---

(١) مارون عبود . المرجع السابق ص ٢٩ .

(٢) اورشليم الجديدة – المرجع السابق – المقدمة صفة «ب» .

في باطنها على قبور الآباء والاحرار ، وعلى ظهرها خدور النساء وأسرة الاولاد فهي حرام حرام ٠ واليد التي تمتد للقبض عليها انما تقبض على النـــــار أو القتاد »(١) ٠

وهكذا فانه يدين الحروب الصليبية في صراحة تتطلب من أي مسيحي شجاعة نادرة ثم تمضي الرواية :

بلوندل : واحرباه ٠ قد دالت دولتنا وغدا يملكون القدس ٠

ماريـا : فليملكوها وليهدموها حجرا على حجر ٠

بلوندل : استغفري الله يا ماريا ٠

ماريـا : بل استغفروا الله أنتم يا من تسوقون الامم على الامم والشعوب على الشعوب ، اقتتالا حـول الاوهام والاسماء واطاعة لامر الرؤساء »(٢) ٠

وبرغم ذلك ٠٠ وبرغم أنه قد تهكم كثيرا على رجال الدين المسيحيين ورجال الاكليروس ، وطالب باغلاق الديور، وبكف يدهم عن التداخل في السياسة أو في شؤون التعليم ٠٠

وبرغم أنه يقول في روايته « الوحش الوحش الوحش » أن تاجرا قد تقدم بشهادات الى مستر كلدن ، فرد عليه مستر كلدن « هل تريد أن أجعل أحد خدامي يجلب مثلها ٠ ومن بينها شهادة رئيس ديني كبير — بعشرة ريالات فقط »(٣) ٠

وبرغم ذلك كله ٠ فان واحدا من رجال الدين المسيحي وقف يؤبنه نيابة عن دير مار جرجس الحصن قائلا « كفروا

---

(١) فرح انطون — السلطان صلاح الدين ومملكة اورشليم ٠ طبعة ١٩٢٣ ٠ مطبعة يوسف كوى بمصر — ص ٣٩ ٠

(٢) المرجع السابق ص ٣٨ ٠

(٣) مارون عبود ٠ المرجع السابق ص ٤٤ ٠

٠٠ كفر الاولى ما دعوك رسولا ، وجهاد الرسولية يعبق بـه قلمك ٠٠ بيمينك حبكت أكليلك الخالد ٠٠ بريشتك الساحرة طرزت ثياب العرس ٠٠ فادخل الى فرح ربك » ٠

٠٠ ألا يحق لنا أن نشعر بالدهشة ؟!

وفدي ... يحرض على سعد
اشتراكي انجيلي .. يدعو للبلشفية

... كنا في أول يوم من أيام القرن العشرين .. يوم ١٩٠٠/١/١ :

« يصدر هذا الجزء من الجامعة يوم انتهاء القرن التاسع عشر ودخول القرن العشرين ، فوداعا أيها القرن الراحل وسلاما أيها القرن القادم .

... لنر هذا القرن على أهيب الثورة الفرنسية ، ومدافع نابليون يدوي صداها في الجهات الاربع ... ولقد كان من تأثير هذه الثورة أنها وضعت أساس الحرية في العالم على أسس ثابتة لا تتزعزع ، وفتحت عيون الامم في الشرق والغرب ، فكأن تلك الشعلة التي أحرقت فرنسا حينا من الزمان قد أنارت الدنيا بأسرها .. »

لكن فرح أنطون لا يكتفي بالثورة البرجوازية ..

« .. ولاريب أن عمل القرن التاسع عشر من هذا القبيل ناقص نقصا عظيما ولكن هذا القرن عمل كل ما كان يستطيع عمله . واذا لم يكن له من فضل غير المناداة بالحرية والمساواة للافراد والشعوب لكفاه ذلك فضلا على القرون الخالية ،

ولكنه لم يناد بذلك فقط بل أعطى الافراد والشعوب قوة توصلهم الى أغراضهم اذا راعوا النواميس الطبيعية وابتغوها، بلا افراط ولا تفريط .

لكن أية أغراض يصلون اليها ؟ .. ان فرحا لا يخفي نفسه ، فالطريق يجب ان يمتد نحو الاشتراكية .. « ذلك أنه من أعمال القرن التاسع عشر الاجتماعية استفحال أمر الاشتراكيين استفحالا نفع المبادىء الديمقراطية وأفاد ضعفاء الامم ، افادة تذكر لهم بالشكر من هذا الوجه . وتفصيل ذلك يطول ايراده فنكتفي بهذا البيان الوجيز .

فأملنا الآن موضوع فيك يا أيها القرن العشرين . لتكن للانسانية خيرا من اخيك القرن التاسع عشر . لا تسمح أن يحدث فيك ما حدث في أخيك من السيئات وكمل كل تلك الحسنات .. فسر بأمان وسلام أيها القرن العشرين »(١) .

وفي تاريخ سابق في ١٣ نوفمبر ١٨٩٩ ، حدث كسوف في الشمس أثار الكثير من هواجس الناس حول نهاية العالم .. ويكتب فرح أنطون مقالا بعنوان « متى ينتهي هذا العالم» .. ويطالب فرح في المقال بنهاية عالم ، وقيام عالم جديد ..

« يسألون متى ينتهي هذا العالم ، فنحن نقول لهم متى ينتهي ، ينتهي حين يعدل الحكام ، ينتهي حين يعامل ولاة الامور شعوبهم كما يعامل الآباء أبناءهم ينتهي متى تنفق الحكومات ما تدفعه الشعوب اليها من الضرائب والرسوم على الامور الضرورية من تعليم الشعوب وانقاذها من آفة الجهل الهائلة لا على البذخ والامور الكمالية . يومئذ ينتهي عالم الجهل والشقاء والفقر والرذائل والاوهام ويقوم عالم ثان

---

(١) الجامعة ــ السنة الاولى الجزء العشرون ١ـ١ـ١٩٠٠ ، مقال «القرن العشرين وماذا عمل القرن التاسع عشر» ـ ص ٤٥٧ .

تنيره شمس الفضيلة الباهرة والادب الغض والعلم الصحيح ·· والا فسواء موتنا وحياتنا في العالم الحاضر وسواء خرابه وعماره اذا بقي على ما هو عليه الآن » ·

وبعد أن يتحدث طويلا عن العالم الذي يحلم به ·· يقول :

« هذه هي العوالم التي يحق أن يؤسف عليها اذا هلكت لا عالم فيه الجهل سائد ، والحق ضائع ، والفضيلة مهجورة ، والعلم تجارة ، والادب منبوذ ، والكبير صغير ، والصغير كبير ، فمتى ينتهي أيها الشرقيون هذا العالم ؟ »(١)·

والحرية · كانت شعاره الاساسي ·· فهي طريق الانسان ليتحقق كل ما يريده وهو لا يتخيل كاتبا أو كتابة بغير حرية « وعندنا أن أولى حاجات الكاتب الجرأة والحرية ونريد بذلك حرية الفكر والنشر ، وتحت الحرية تدخل فضائل كثيرة فانه متى كان الكاتب يكتب بحرية واستقلال فكر فانه يكون صادقا منصفا عادلا ·· ويشترط ذلك أن تكون الحرية مطلقة في أقواله لا أن يتكلم بحرية في هذا الموضوع لان الحرية موافقة لمصلحته ويداهن ويصانع في ذلك لان الحرية فيه مخالفة لمصلحته »(٢) ·

وهو يدافع عن حقوق الانسان ·· وينشر النص الكامل لوثيقة حقوق الانسان الفرنسية تحت عنوان « حقوق الانسان لا يجوز أن يدوسها انسان »(٣) ·

---

(١) الجامعة ـ السنة الاولى الجزء السابع عشر ـ ١٥ نوفمبر ١٨٩٩ ص ٣٨٢ ·

(٢) الجامعة ـ السنة الرابعة ـ الجزء الرابع ـ يونيو ١٩٠٣ ـ مقال الكاتب الشرقي وحاجاته · ص ٢٣٠ ·

(٣) الجامعة ـ السنة الثالثة ـ الجزء الرابع نوفمبر ١٩٠١ ـ ص ٢٥٠ ·

وهو يدعو الى نشر التعليم والزاميته ، ويربط معركة التعليم بالمعركة ضد الاحتلال الانجليزي ·· « أما ادخال الزامية التعليم الى القطر المصري فيخيل لنا أنه أمر أصعب واسهل معا ·· نقول اصعب لان الحكومة المصرية لا تستطيع الانفاق كما تشاء ، اذ هي مقيدة بمراقبة مالية اجنبية ، ونقول أسهل لان قناطيرها الذهبية المقنطرة الموفرة في صندوق الدين كفيلة لها باخراج هذا المشروع الى حيز الفعل ، اذا أقدمت عليه وطلبت من الصندوق بالحاح الاموال اللازمة له ·· ونحن على يقين بأن الوزير الذي يقوم الى هذا العمل العظيم يخلد اسمه في تاريخ مصر ويستحق أن يلقب بالمحسن الى الامة المصرية ·· ولكن هل يقوم في مصر هذا الوزير · أم تمنع الحالة الحاضرة من قيامه فيبقى الشعب المصري بلا نور ولا علم الى ما شاء الله »(١) ·

ولكن لماذا يدعو الى نشر التعليم والمعرفة ؟·· انه يعتقد أن نشر التعليم معركة هي بذاتها بداية لمعركة أخطر فالمعرفة « تجلو عن النفس غياهب الجهل ، وتعلمها كل فضيلة ، وتدنيها من أبواب السماء ، المعرفة عدوة الظلمة وصديقة النور ، عدوة التوحش وصديقة التمدن،عدوة الضلال وصديقة الحقيقة ، عدوة الرذيلة وصديقة الفضيلة هذه هي المعرفة التي نعنيها »(٢) ·

وهو يدافع عن حقوق المرأة وينشر في الجامعة تلخيصا لكتاب المرأة الجديدة لقاسم أمين مؤيدا دعوته (٣) ·

---

(١) الجامعة ـ السنة الثانية ـ الجزء الاول ابريل ١٩٠٠ ـ ص ٢٢

(٢) مقال تربية الفتاة ـ مناهل الادب العربي ـ المرجع السابق ـ ص ٣٥ ·

(٣) الجامعة ـ السنة الثانية ـ الجزء العاشر ـ ص ٦٢٦ ·

لكنه مع ذلك يتخذ موقفا متحفظا تجاه حق المرأة في العمل « ذلك أن وظيفتها أن تكون زوجة وأما ، لهذا خلقت في هذه الحياة لا لامر سواه ، فتربيتها اذا يجب أن تعلمها واجبات الزوجية والامومة » لكنه مع ذلك يسمح للمرأة بالخروج الى ميدان العمل « اذا هبت على منزلها احدى زوابع الاقدار الهائلة السوداء التي طالما هبت على المنازل فكسرت قلوبا ونغصت عيشا ·· لا خلاف في انه يجب عليها حينئذ أن تشمر عن ساعد النشاط والهمة وبرأس مرفوع كأنها تناطح الاقدار ·· تتقدم الى العمل بشرف وجد لتكسب خبزها وخبز اولادها بعرق جبينها » (١) ·

لكنه يربط كل معركة يخوضها بالقضية الاساسية قضية الصراع من أجل مجتمع أفضل للانسان ·· وهو يفكر ·· ويدعو كل العلماء الشرقيين الى التفكير أيضا ، بحثا عن المبادىء التي قد تقود الى هذا المجتمع ··

وتحت عنوان « اقتراح الى العلماء » يقول : الشعب في الشرق ساكت جاهل غبي مظلوم يعيش في اسفل السلم الاجتماعي ولا يعرف موجود هو أم غير موجود · وفي احشائه الشقاء والعناء وجميع الرذائل التي يمكن نزولها بالانسان · يقابله في الطرف الثاني من تلك السلم طبقة الاغنياء المشغولين بملاذهم ومصالحهم عن شغل أدبي ووطني لا يهمهم عاش الناس أم ماتوا ما دامت صناديقهم ممتلئة وبطونهم مفعمة · وبين هاتين الطبقتين طبقة متوسطة تعاني جهاد الحياة وتكاد تسقط في هذا الجهاد لتشبهها بالطبقة التي فوقها وطلب الاقتضاء

(١) مقال تربية الفتاة – مناهل الادب العربي – المرجع السابق ص ٢٨ ·

بها » ·

وفي هذه الحالة لا بد من البحث عن مخرج ·· لكن الصحافة في الشرق « حسناء ولكنها عمياء توقد الشمع في قاعات عميان · وهذا الشمع غير سليم دائما ، بل كثيرا ما يكون مغشوشا ينبعث منه دخان يؤذي العيون ان لم يعمها » ·

ما هو الطريق اذن ؟ ·· « ما العمل في هذه الفوضى الادبية والاجتماعية السائدة الآن ؟·· يقولون الحكومة ولكن الحكومة في مصر مقيدة اليدين بقيد داخلي هو قيد الاحتلال وقيد خارجي هو قيد المعاهدات الاوروبية ·· يقولون الاغنياء ولكن ماذا فعل الاغنياء الى اليوم وما الوسيلة الى تحريك قلوب الاغنياء واستحثاث هممهم ؟ » ·

ثم يتساءل فرح في مرارة « أية تربية تنقصنا الآن ·· وما هي المبادىء العظيمة التي يجب ادخالها الى الشرق لتحيا رفاته الرميمة ، وما هي الكتب التي تلزمنا في المدارس على وجه العموم وما الوسيلة لجعل الصحافة العربية أكثر نفعا وأشد تأثيرا ·

يقولون أن الحقيقة بنت البحث ، ولذلك عزمنا عن البحث عنها حيث يمكن وجودها »(١) ·

لكن البحث عن الحقيقة نضال ، يتطلب تضحيات «وكانت أول مبادىء فرح أنطون وعقائده أن في كل قوم أو شعب أو أمة افرادا مخلوقين لكي يضحوا بمصالحهم الشخصية وبملذاتهم النفسانية وأخيرا بحياتهم لاجل مصلحة شعبهم·· والامة تكون قوية أو ضعيفة بقدر ما فيها من هؤلاء الذين خلقوا ولا لذة لهم الا هذه اللذة ، لذة تضحية الفرد لاجل

(١) الجامعة – السنة الاولى – الجزء ١٨ – اول سبتمبر ١٨٩٩ – ص ٤١٢ ·

الجماعة » (١) ·

ويؤكد فرح أنطون على هذه الحقيقة أكثر من مرة فلا أمل في أي نجاح لنظرية نضالية بغير نضال « ليس كل نظرية جميلة يود الناس أن ينفذوها ·· فاذا ، قبل تحبيب الجمهور بالمبادىء الديمقراطية والاشتراكية يجب الاستعداد للجهاد في مقاومة الاستبداد والاستعباد وتأييد الحرية بالقوة » (٢) ·

وبعد أن كان يكتفي بالكتابة عن الفلسفة والعلوم ، ما لبث أن شعر بالشعب المصري وهو يتحرك ·· أو بالدقة يتململ من الاحتلال ·· وسارع اليه بمد يده مشاركا في نضاله ··

« عاد من أمريكا الى مصر فاذا بالشعب المصري قد انتقل من دور العلم الى دور العمل · فانصرف عن النظريات الفلسفية الى العمل ، وتحول عن العلم الى السياسة »(٣) ·

وفي باريس ـ كما رأينا من قبل ـ التقى بمحمد فريد ، وعاد لينهمك في تحرير صحف الحزب الوطني ·· ثم هدأت المعركة وفرضت الحماية البريطانية وكبلت الايدي والافواه ··

« ولما نشطت الحركة الوطنية بعد الحرب أدار دفته في مجرى السياسة وبلا تردد » ·

وفي هذه الاثناء أسهم في تحرير صحف الوفد ·· الى حد أنه كان يعتبر وفديا نشيطا ، وربما كان « فرح أنطون »

---

(١) نقولا الحداد ـ كلمة الشكر التي القاها في حفل تأبين فرح انطون· ملحق مجلة السيدات والرجال ـ المرجع السابق ـ ص ٩٩ ·

(٢) المرجع السابق ص ١٣١ ·

(٣) رد روزا انطون على مجلة الهلال ـ ملحق مجلة السيدات والرجال ـ المرجع السابق ص ٤١ ·

أحد المفكرين الشوام القلائل الذين انتموا سياسيا الى حزب الوفد ·· أو ـ بالدقة ـ أسهم اسهاما نشطا في الدعوة له ·

لكنه كان وفديا من نوع خاص ، فما ان شابت تصرفات سعد زغلول مسحة من التردد وأعلن في تصريح له مع جريدة الاخبار عن استعداده للتفاوض مع الانجليز ، حتى غير فرح أنطون موقفه بل وموقف جريدة الاهالي التي كانت تعتبر منبرا وفديا ·

وبدأت الاهالي في انتقاد سياسة سعد انتقادا شديدا · وتنشر قصيدة عنيفة تقول :

الى أين تمضي بالامانة يا سعد
وتجني على شعب عليك له العهد
رويدك لا تعبث بآمال أمة
شغوف بالاستقلال يهتاجها المجد
فيا سعد حاذر أن تزل طريقه
والا فلا سعد هناك ولا وفد (١) ·

وتقود « الاهالي » حملة توقيعات تعلن سحب توكيلها للوفد وتفسح صدرها لنشر أسماء الموقعين لعدة أيام على التوالي تحت عنوان « الرأي العام يسقط توكيل الوفد »(٢)·

بل أن الاهالي تتحالف مع الجمعية المصرية في باريس وهي جمعية كان يسيطر عليها الطلاب اليساريون والمصريون الذين يتلقون العلم في باريس وكانت على علاقة وثيقة بالحزب

---

(١) الاهالي ١٤ـ١ـ١٩٢١ ·

(٢) الاهالي ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ـ١ـ١٩٢١ ·

الاشتراكي الفرنسي (١) .

وتذخر صفحات الاهالي ببيانات الجمعية « احذروا المفاوضة أيها المصريون » (٢) و « الجمعية المصرية بباريس تنزع ثقتها في الوفد وتطلب الامتناع عن كل مفاوضة » (٣) .

لكن سعد يتراجع تحت ضغط الجماهير ويرسل تلغرافا الى جريدة الاخبار يقول « اني لا أدخل في أي مفاوضة على أساس مشروع ملنر قبل تعديله بالتحفظات ولا أؤيد من يدخل فيها بدون هذا الشرط مهما كانت علاقته بشخصي ومهما كانت ثقتي به » (٤) .

ومن جديد تعود الاهالي للدفاع عن سعد والوفد ،معلنة في افتتاحية لها « الاستقلال التام هو الراية التي يلتف حولها الجميع » (٥) .

وبرغم هذا الخلاف الذي طرأ بين « فرح أنطون » وجريدة الاهالي من جانب وسعد زغلول من جانب آخر فان روز أنطون شقيقة فرح تهدي مسرحية « السلطان صلاح الدين ومملكة أورشليم » « الى روح الوطنية المصرية ٠٠ من روح الجامعة الشرقية . أيها الرئيس العظيم سعد ، وكفى

---

(١) راجع في هذا الصدد . د. رفعت السعيد ـ تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر ـ ١٩٠٠ ـ ١٩٢٥ ـ دار الفارابي بيروت . وراجع ايضا لنفس المؤلف . عصام الدين حفني ناصف ـ سلسلة طلائع الفكر الاشتراكي في مصر ـ دار الثقافة الجديدة القاهرة .

(٢) الاهالي ١٤ـ١ـ١٩٢١ .

(٣) الاهالي ٢٥ـ١ـ١٩٢١ .

(٤) الاهالي ٢٦ـ١ـ١٩٢١ .

(٥) الاهالي ٢٧ـ١ـ١٩٢١ .

بسعد دلالة على النبل والوطنية والتضحية ، لو كان اخي فرح أنطون ٠٠ حيا الآن حين تطبع روايته هذه لكان ولا شك يقدمها اليكم رمزا لاحترامه لشخصكم ولولائه للامة المصرية النبيلة . فبالنيابة عن تلك الروح التي كان لهافخر التجند تحت لوائكم والتلذذ بالجهاد تحت قيادتكم وقد فارقت العالم وهي تلهج بحبكم واجلالكم أرفع اليكم هذا الكتيب » .

والسؤال الآن ٠٠ لو كان فرح حيا هل كان يصوغ مقدمة روايته بمثل هذه الحرارة ؟

ربما !!

وعلى أية حال فان فرح قد خاض معركته ضد الانجليز منذ أمد يسبق كثيرا احداث ثورة ١٩١٩ وخلال حرب البوير يكتب مقالا عنيفا ضد الاستعمار والحروب الاستعمارية بعنوان « الترانسفال ظالمه أم مظلومه » يقول فيه « لا يزال البشر على الارض في أواخر القرن التاسع عشر كما كانوا في العصور الخالية ذئابا يقتلون بعضهم بعضا ، دارت رحى الحرب في جنوب أفريقيا بين البوير والانكليز ٠٠ فأعدوا أيها المعدون أماكن للفريقين ، ولتكن هذه الاماكن رحيبة ، فان القادمين الينا كثيرون ، والمدافع نصبت ، والسيوف شحذت، والبنادق حشيت ، والسفن عبئت وملائكة الموت تحوم الآن فوق الفريقين تحصي الارواح التي سيسفكها السلاح من قيود الاجسام ٠٠ فيالتوحشك أيها الانسان ، لقد أسأت التصرف فيما أعطيت من حريتك » .

لكن الى أي جانب يقفُ الرجل ٠٠ مع الانجليز أم ضدهم ٠٠؟

وهو يصور موقفه تصويرا دراميا عندما يتخيل أرواح القتلى صعدت الى السماء « فناداهم حارس على الباب قائلا : في كل حرب لا بد من ظالم ومظلوم ، وانتم فريقان متحاربان

فليجلس الظالم منكم على مقاعد الظالمين ، والمظلوم على مقاعد المظلومين » .

وفي هذه الاثناء تتقدم الروح الوطنية المصرية ممثلة في شاب مصري قتله الانجليز يسميه فرح « مشنوق الاسكندرية» « فأجفلت لكلمة الانكليز وصاحت الانكليز ظالمون .. ظالمون، قد رأينا ذلك عندنا في مصر ، فان الانجليز لم يكونوا قط مظلومين »(١) .

لكنه لا يكتفي بالموقف الوطني هجوما على الانجليز ، بل ينتقل وبسرعة الى الموقف الطبقي هجوما على الاغنياء ..

« تراهم يركضون ويجدون ويجمعون المال أكداسا الى أكداس فتخالهم صاعدين مرتقين والحقيقة أنهم ما زالوا يدورون ضمن تلك الدائرة .. ويزيدهم الغنى انحطاطا لان الثروة تبطر صاحبها » .

وهو يقدم صورة بشعة للرجل الغني فيصفه قائلا :

« ما قولك في رجل بليد جاهل لا يعرف من الدنيا شيئا غير جمع المال بالطرق المحللة والمحرمة ، وهمه في غش الناس للربح منهم ، جسمه كجسم الثور غلاظة وضخامة وعقله كعقل العصفور » .

وطالما وجد هذا الرجل في مجتمع ما .. فان « كل أفكاره تكون متجهة الى جهة واحدة وهي التغلب على غيره بكل الطرق فعنده الغش والاحتيال والسرقة وتعمد ضرر الغير وخرق حرمة كل نظام وشريعة بطرق يعرفها ويعرف أنها لا توقعه تحت طائلة الشريعة ، والاستئثار بكل شيء واستخفاف

(١) الجامعة ـ السنة الاولى ـ الجزء السابع عشر ـ ١٥ ـ نوفمبر ١٨٩٩ ـ ص ٣٧٤ .

كل شيء في الارض والسماء ، اذ لا قيمة لشيء عنده غير المال، كل هذه تبلغ لديه أشدها وتوجه جميع قوى نفسه الى نقطة واحدة تنحصر كلها فيه وهي ربح المال والوجاهة ، وهو في هذا السبيل يجود بكل رخيص وغال ، ويسلك هذا المسلك بهمة مشحوذة كهمة ذئب يطلب الفرائس في كل مكان »(١) .

وهو يعلق على ديوان مصطفى صادق الرافعي وينتقي منه ثلاث أبيات من الشعر :

أرى الانسان يطغى حين يغنى
وما أدنى الهبوط من الصعود
كما تعمى البهائم حين ترعى
من الشوك الكثير لاجل عود
أليس من التغابن وهو ظلم
جزاء السعي يكتب للقعود

ويعلق على البيت الاخير قائلا « قلنا .. هذا البيت الاخير يعدل وحده ديوانا كاملا ، فانه عبارة عن خلاصة الانتقاد الذي يوجهه بعض العلماء والفلاسفة كتولستوي مثلا .. الى أغنيائهم الذين يتنعمون زهم قعود في مجالسهم دون عمل يعملونه بتعب عشرات ومئات وألوف من البشر المستخدمين لهم »(٢) .

وهو يعرف داء مجتمعه ويعرف من أين يأتي الظلم وما

(١) مقال الرويات وانفعها لنا ـ مناهل الادب العربي ـ المرجع السابق ص ٦٠ .

(٢) الجامعة ـ السنة الرابعة ـ العدد ٩ ، ١٠ ، ص ٣٧٤ .

هي بواعثه وأسبابه :

.. نحن نعلم « نعلم لماذا الذين أصبحوا منا قادرين على النفع بثروتهم التي حصلوها بطرق مختلفة ليس لهم هم الا التمتع بها بوقاحة وبله دون أن يعملوا شيئا نافعا للامة التي خرجوا منها وتحمل كل أثقالهم . نعلم لماذا كل حكامنا ورؤساؤنا مدنيا ودينيا متى ولوا شأنا عموميا استخدموه لجر النفع الى أنفسهم لاعتبارهم الرعية بقرة حلوبا »(١) .

وهو يعرف أيضا .. الطريق الى مقاومة الظلم ، فيدعو قومه الى تكوين جمعيات صناعية وزراعية وتجارية .. ويقول « ان جمعيات العملة والزراعة والتجارة والصناعة هي التي تسوق اليوم السياسة والساسة في سبيل الارتقاء بقضيب من حديد »(٢) .

وفي مقال بالغ الاهمية بعنوان « آفات التمدن الحالي » يدين فرح أنطون « النظام الرأسمالي » ادانة واضحة مؤكدا أنه قد استطاع أن يصل بهجومه على الاغنياء من مجرد التعاطف مع الفقراء والمظلومين الى الادراك الواعي لحقائق الصراع الطبقي في المجتمع الرأسمالي ..

« للتمدن الحالي آفات ، كما أن له حسنات . ومن هذه الآفات تمكن بعض البشر من دوس القانون استنادا الى القانون وقتل حقوق الانسان استنادا الى مبدأ حقوق الانسان .

ومن هذا القبيل حالات الغنى الطائلة في أمريكا . فان أنصار حرية الغنى يقولون أن مداخلة الحكومة في شؤون أرباب

(١) مقال الروايات وانفعها لنا – المرجع السابق . ص ٦٠ .
(٢) المرجع السابق . ص ٦١ .

الاموال لتحديد غناهم ومراقبة أعمالهم ، أمر يخالف مبدأ الملكية المقدس ويفضي الى الفوضى فضلا عن خنقه بذور النشاط والجد في العالم . وهو قول لا يخلو من صواب ولكن النتائج التي تبدو الآن من أمريكا فيما يختص بالغنى الطائل توشك أن تكون للهيئة الاجتماعية خطرا أشد من خطر القيام على مبدأ الملكية . وهذا الخطر هو الاحتكار ، فانه قد نشأت في تلك البلاد صناعة جديدة مدارها على تأليف شركات احتكار البضائع والسلع ومواد المعيشة ، فشركة تحتكر الفولاذ ، وواحدة تحتكر السكر وأخرى تحتكر البن .. وهذا الاحتكار لا يستوجب اذنا من الحكومة ولا رضى من أرباب الصناعة ولا موافقة من الاهالي بل يتم بالرغم عنهم جميعا .. »

« .. ان ما يربحه الاغنياء في البورصة من الارباح الفاحشة بلا تعب ولا نصب مبني أكثره على غش الناس وخداعهم ليضاعفوا ثروتهم الطائلة بحركات مالية تستنزف أموال الامة » .

ويختتم فرح أنطون مقاله مشبها الرأسماليين بدود العلق الذي يمتص دماء البشر قائلا « ومن الغريب أنه ما من أحد يجهل ما انطوت عليه هذه العلق الهائلة التي تمتص دماء الشعوب وحياتهم ، هؤلاء الذين يدعون الشرف والاستقامة لكونهم لا يخالفون نص القانون »(١) .

بقي أن نقول أن فرح أنطون كان يكتب هذه الكلمات عام ١٩٠١ ، مؤكدا بذلك ريادته في هذا الميدان الصعب .

لكن « فرح أنطون » لم يسلم من الهجوم ، فلم يكن من

(١) الجامعة – السنة الثانية – الجزء ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ – ابريل ١٩٠١ ص ٧١١ .

السهل أن تمر مثل هذه الكلمات الشجاعة دون أن تثير ثائرة الرجعية المتربصة ٠٠ فبعد نشره رواية « أورشليم الجديدة » تهاجمه المقتطف هجوما شديدا ٠٠ ويمتد الهجوم الى بيروت فقد « علق الكاتب الفاضل الشيخ خطار الدحداح في جريدة المصباح البيروتية تعليقا انتقد فيه الرواية وقال أن مبدأ الجامعة هو مبدأ الكومنيزم (أي الشيوعية) » ٠

ولعل فرح ومجلته الجامعة هما أول من حظيا بمثل هذا « الهجوم » !

وردا على هذا الهجوم يشن فرح انطون هجوما مضادا عنيفا ٠٠

« تولستوي وفولتير ٠٠ هؤلاء الاعاظم مع كونهم من الطبقات العالية ومن أهل المال دأبهم أن يحاربوا بكل قواهم في الطبقات العالية الحاكمة والمحكومة ذلك الفساد الاجتماعي والسياسي المبني على سلطان المال الذي يسمم دم الامة شيئا فشيئا لانه يقتل العدالة فيه ، لجعله القانون ألعوبة في يد المال يميل معه حيثما مال ويحصر السلطة والمنافع والاملاك والارزاق في أفراد قلائل ويكون باقي الامة أجراء مسخرين لهم يتعبون ويكدون ويكدحون وغيرهم يتمتع بثمرة تعبهم دون أن يهتم أو يغتم لحالة الامة والعملة (العمال) الذين يجمع ثروته منهم ٠

ويؤكد فرح أنطون أنه ليس وحده في الميدان :

« ويظهر أن هذا الداء (الاستغلال الرأسمالي) قد بدأ ينتشر في الشرق انتشاره في الغرب ، فقد قرأنا منذ مدة في شهر واحد فقط عدة فصول في الجرائد العربية فيها بروق ورعود على سلطان المال في الشرق ، منها مقالة في جريدة «الصاعقة» المصرية هي في الحقيقة صاعقة لم نقرأ قط مقالة

بليغية بموضوع كموضوعها ٠ وأخرى في رصيفة في البرازيل لمراسل تكلم عن حالة الطبقات الاجتماعية ٠٠ »

ويؤكد فرح ثقته الكاملة بالمستقبل وحتمية انتصار الاشتراكية وان الرأسمالية مهزومة لا محالة ٠٠ وهو يؤكد أيضا أن الحركة الاشتراكية سوف تنتشر سريعا في الشرق ٠

« ويظهر لنا مما نلاحظه ونقرأه ونسمعه حينا بعد حين أن هذه الحركة آخذة في الامتداد والانتشار ٠ ونحن نأسف لها لانها ستكون في مستقبل قريب أو بعيد سبب نزاع شديد بين الشرقيين كما هي بين الغربيين ، ولكن الاسف لا يوقف مجرى النواميس الطبيعية ٠ ومتى جاء ذلك الزمن وصار معلوما في الشرق أن هدم الفساد الاجتماعي مقدم على هدم الفساد السياسي لانه بدون الفساد الاجتماعي يستحيل وجود الفساد السياسي ٠ وذهبت دولة الاستفراد العصري Individualisme الذي أروج ما تكون بضاعته في صفحات رصيفتنا المقتطف ، والاحتكار المالي الذي يقيم له الرصيف في صفحاته صورا وتماثيل يمجد بها أولئك الامريكيين الطغاة الذين يحتكرون أرزاق الامم ويعيشون فيها كالعلق يمتصون دمها ولا ينفعونها » ٠

لكن أية دولة يريد فرح ٠٠ بعد أن يهدم دولة رأس المال ٠٠ انه يريد « دولة التعاون الاجتماعي والتضامن البشري بين جميع طبقات الامة »(١) ٠

مرة أخرى نريد أن يذكر القارىء أننا في عام ١٩٠٣ وفي نفس العام أخرج فرح أنطون رائعته المبدعة ، رواية « الدين

---

(١) الجامعة ـ السنة الرابعة عام ١٩٠٣ ـ العدد ٩ ، ١٠ ـ **مقال** «اورشليم الجديدة وآراء الرصفاء» ٠ ص ٢٧٣ ٠

والعلم والمال » وفيها أقام ثلاث مدن احداها يسودها الدين والاخرى يسودها العلم والثالثة يسودها المال ، ثم أقام حوارا وصراعا بين القوى الاجتماعية المختلفة في هذه المدن الثـلاث أبرز فيه بصورة واضحة حقائق الصراع الطبقي بين العمال ورأس المال ٠

ونعتقد أنه من واجبنا أن نتوقف لبرهة لنتأمل هـذا الكتاب ، ليس فقط لانه وثيقة فكرية بالغة الاهمية ، وتمثـل أول كتاب ناقش أفكارا ماركسية وقدمها لقراء اللغة العربية بشكل مبسط ، وانما أيضا لان كل الذين كتبوا عن « فرح أنطون » وهم قليلون قد مروا مرور الكرام على هذا الكتاب ، فلم ألاحظ أن أحدا منهم قد أشار الى اقتباس واحد منـه ، ربما لانهم أرادوا أن ينأوا بالرجل عن الميدان المباشر للفكـر الماركسي ، وربما لان نسخ هذا الكتاب بالذات غير متوفرة ٠٠

على أية حال فاننا نعتقد أن هذا الكتيب الصغير يمثل وثيقة هامة تتناول بالايضاح وبشكل مباشر ـ وربما لاول مرة في تاريخ الكتاب العربي ـ بعض أفكار النظرية الماركسية وخاصة حول قضية الاستغلال المالي ٠٠

وكعادة فرح فانه يوجه سهامه منذ اللحظة الاولى ، فعلى الغلاف عبارة ذات مغزى « فليحذر العالم من يوم يصير فيه الضعفاء أقوياء ، والاقوياء ضعفاء » ٠

وهو يفسر في المقدمة اللبس الذي طالما برز في الكتابة عن هذا الكتيب وهل هو كتاب أم رواية ؟ « ٠٠ وهذا الكتاب « الدين والعلم والمال » هو الرواية الاولى من هذه الروايات ٠ وموضوعه معروف من عنوانه ٠ وقد سميناه رواية على سبيل التساهل ، لانه عبارة عن بحث فلسفي اجتماعي في علاقة المال والعلم والدين وهو ما يسمونه في أوروبا «بالمسألة الاجتماعية»

وهي عندهم في المنزلة الاولى من الاهمية لان مدنيتهم متوقفة عليها »(١) ٠

ومحور « الرواية » شاب اسمه حليم جاء « من أقاصي البلاد ليشاهد المدن الثلاث التي سار بذكرها الركبان و «حليم» هذا « شاب في نحو الثلاثين من العمر وقد جاء سائحا لمشاهدة هذه المدن الثلاث التي سمع بها من بلده ٠ وكان رجلا قـد درس علوم المتقدمين والمتأخرين ووقف على المباديء القديمة والحديثة وصار يطلب ضالته بينها على غير فائدة ٠ فـلا المدنيات القديمة كانت تعجبه لان حقوق الضعفاء كانت مهضومة فيها وبناؤها قائم على القوة والعنف ، ولا المدنيات الحديثـة ترضيه لانها جعلت الحياة عراكا هائلا وجهادا عظيما بين الناس » ٠

لكن ذلك لا يعني أن فرح يبقى بغير هـدف اذا كان القديم لا يعجبه والحديث لا يعجبه ٠٠ ذلك أن حليم « كان وهو في المدرسة قد لمح في ذهنه عصرا يسميه مؤرخو اليونان العصر الذهبي ويسميه كتـاب المسيحية عصر الفردوس الارضي ، فبقي منه في فكره أثر كان يحضر فيه كلما رأى زحام الحياة وجهادها بين أفرادها » ٠

ثم نأتي الى جوهر الموضوع وهو الحوار الذي أجراه المؤلف بين القوى المتصارعة أمام « رئيس الاجتماع وهو رئيس جمهورية المدن الثلاث » الذي افتتح الجلسة قائلا « أما الآن فاننا نسمع الشكاوى التي اجتمعنا للنظر فيها بصدق وحسن نيـة ٠٠

فنهض زعيم العملة وقال : انّ شكوى العمـال من طمع أرباب الاموال ٠ فالعمال يتعبون ويجنون وأرباب

---

(١) فرح انطون ـ الدين والعلم والمال ـ المدن الثلاث ـ الاسكندرية في ١ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٣ ـ المقدمة ٠

الاموال يتمتعون بتعبهم ويتلذذون ٠ فمن العدل ان يشارك أولئك هؤلاء في كل الاشياء » ٠

ولنتأمل هنا عبقرية فرح وهو يلخص بدقة بالغة أسلوب الرأسماليين في مجابهة مطالب العمال ٠٠

« فنهض النائب عن أرباب الاموال وقال : ان شكوى أرباب الاموال لم تكن من العملة أنفسهم فاننا نحب عمالنا كما نحب أولادنا ٠ كيف لا وهم رفقاؤنا وشركاؤنا في أعمالنا ، وانما شكوانا من بعض الطامعين الذين يثيرون خواطرهم علينا ويحرضون طبقتهم على طبقتنا ٠ فلتفصل الحكومة العمال عن هؤلاء المحرضين فيستتب السلام بين الجميع ٠

فنهض رجل من فريق العلم وقال : اذا صح انه متى رفعت يد الذين يسمونهم محرضين بين العمال وأصحاب الاموال فان السلام يستتب في الحال فقد زال نصف شكوى أهل المال ٠ وانما يبقى عليهم في هذا الموضوع أن يبحثوا هل يرافق السلام الذي يحصل حينئذ هناء العمال وراحتهم وسعادتهم ، أم يبقى سلامهم موتا أدبيا وماديا كسلام أهل القبور ٠ واننا معشر أهل العلم نفتخر في هذا العصر بأننا حللنا في هذه المسألة محل أهل الاديان وصار همنا الاول التفكير بانهاض الشعوب وترقيتها بينما نرى أهل الاديان يسلمون الشعوب بأيديهم الى الاطماع المختلفة ٠ فكان فعلهم مثل ملوك يخلعون أنفسهم بأنفسهم ٠ ولذلك نراهم يكثرون من التزلف للاغنياء وأرباب الاموال ويجارونهم في كل شيء حتى في ما يخالف مبادئهم الدينية وينقض أساسها ويلهون الشعب في أثناء ذلك بالتدجيل عليه ليشغلوه بالاوهام والاحلام عن مصالحه الحقيقية » (١) ٠

---

(١) ص ١٤ ٠

وبعد أن انتهت جلسة تحديد الشكاوى عقدت جلسة أخرى للمرافعات ٠ وكان أول المتكلمين فيها زعيم من زعماء حزب العمال فقال « لقد أحسنتم في تخصيصكم الجلسة الاولى لمشاكل العمال وأصحاب الاعمال لان هذه أكبر المشاكل في الحقيقة ٠ ومتى حللناها حللنا معها سواها ٠ ولكن لا سبيل الى حلها الا بطريقة واحدة وهي اشراك العمال في ربح الاعمال٠ فاننا الآن نخدم أصحاب الاعمال كما يخدم العبد سيده ٠ وأسعدنا حظا وأعظمنا قدرا يتناول في الشهر مائة فرنك ٠ أي يأخذ في السنة أجرة ١٢٠٠ فرنك فاذا افترضنا أن عددنا في العمل ٣٠ عاملا كان مجموع ربحنا جميعا في العام ٣٦ ألف فرنك على حين أن العمل يربح في كل عام مليون فرنك ربحا مجردا ٠ وكل هذه القيمة تذهب وتنصب في صندوق صاحب المعمل مع اننا نحن السبب في ربحها ٠ فأية عدالة عند الله والناس تجيز هذا الامر وأي دين يرضى بأن يسعى مائة وواحد يأكل ٠ ولكن فلنترك مسألة الربح جانبا ، ولننظر الى مسألة أخرى ، وهي أن بين العمال والمستخدمين قوما لا يتناولون في اليوم أكثر من فرنك واحد أجرة لهم فكيف يمكن أن يكفيهم هذا الفرنك خصوصا اذا كان لهم أولاد عليهم القيام بأودهم ٠٠٠ ثم أن العامل قد يمرض وقد يعجز وقد يموت فماذا يحل به وبعائلته ؟

٠٠٠٠ لذلك نطلب منكم نحن العمال باسم الانسانية والاخاء البشري أن تنصفونا فاننا نحن الاكثرية في البلاد وبدوننا لا تقدرون أن تصنعوا شيئا ٠٠ فحرام أن نصنع كل شيء ، وعلى ظهورنا تلقى كل الاحمال ثم تترك الحكومة فريقا قليلا من أصحاب الاموال يحتكر منافع البلاد وفوائدها وخيراتها ويسخر لنفسه الامة كلها » ٠

لكن الرأسمالية لا تجد ما تتستر به سوى دعوى الحرية

وعدم أحقية الحكومة في التدخل في شؤون الافراد ٠٠ ولهذا ينتفض « صائح من فريق المال : ولكن ماذا تريدون أن تصنع الحكومة ؟ هل من حقها أن تتداخل بينكم لتجبر أرباب الاعمال على زيادة أجوركم ومقاسمتكم أرباحهم ٠ ألا تعلمون أن لاصحاب الاموال الحق المطلق في التصرف بأموالهم وأملاكهم كما يريدون ٠ وأن الحكومة لا يمكنها التعرض لحق الملكية لانه من الحقوق التي لا تنقض »(١) ٠

ويتطرق ممثل فريق المال الى ذكر آراء عدد من الفلاسفة وهنا يقتحم ممثل العمال الميدان باسم فيلسوف الطبقة العاملة كارل ماركس ٠٠

« فاذا كان في حزبكم فلاسفة كبار وعلماء أعلام ففي حزبنا من هم فوق العلماء والفلاسفة ثم هل تريدون منا فلاسفة فاسمعوا رأي الفيلسوف كارل ماركس ٠

فضحك بعض فريق المال وقال أحدهم : ما شاء الله تستشهد بأشد أنصاركم غلوا » ٠

لكن فرح أنطون لا يترك ممثل حزب العمال للهزيمة ٠٠ بل يردد على لسانه دفاعا قويا عن كارل ماركس وعن نظريته ٠٠ويقول « ٠٠ لا بل نستشهد بفيلسوف من الفلاسفة رأيه يناقض رأيكم في الملكية ٠٠ أما نحن فنقول مع هذا الفيلسوف (كارل ماركس) أنكم في خطأ عظيم فان معامل الامة ومصانعها ومتاجرها وأراضيها هي من مرافقها ومنافعها كالانهر والابحر والهواء ، ولذلك لا يجوز أن تكون ملكا لفرد أيا كان ، بل هي ملك لجميع الامة ٠ فعلى الامة أن تتولى ادارتها بنفسها وتوزع أرباحها بين أبنائها »(٢) ٠

---

(١) ص ١٨ ٠
(٢) ص ١٩ ٠

ويجري النقاش طويلا ٠٠ العمال والعلماء في جانب ورجال المال والدين في جانب آخر ٠٠ وعلى لسان مندوبي العمال والعلماء يجري دفاع مجيد عن حقوق العمال ٠٠ وعن النظرية الماركسية ٠ ولكن أروع ما في هذا الكتيب هو أن فرحا يكتشف الفارق الهائل بين العمال وبين العلماء ٠٠ بين الثورية الحقة والاعتدال ، بين الماركسية وبين اشتراكي الدولة الثانية ٠٠ بين فكر الطبقة العاملة وفكر المثقفين الانتهازيين ، ذلك أن فريقا من العلماء المعتدلين لا يلبثون أن يلجأوا الى حلول وسط ٠٠ فيحاولون تسوية الخلاف بين العمال والرأسماليين على أساس زيادة الاجور وفرض ضريبة الايراد ويعدون قانونا بذلك ، لكن « القوى الثورية » بين العمال ترفض ذلك فهي لا تقبل الا دولة اشتراكية٠٠ ويصحوا الناس صباح اليوم التالي ليجدوا على الجدران في كل مكان اعلانات حمراء طويلة عنوانها بأحرف غليظة « الشعب المهذب يخون الشعب المسكين » وهو نص هام لان فرح يحدد فيه تصوره لمطامح الاشتراكيين ولاساليب كفاحهم ٠

« أيها الاخوة العمال والمستخدمون

لقد خدعوكم وضحكوا عليكم ٠٠ فلا تصدقوهم ، ولا ترضوا باقتراحاتهم ٠ اذ لا غرض لهم من هذه الاقتراحات سوى ارجاعكم الى العبودية بالاجرة وانتم لا تطلبون الضريبة على الايراد ولا زيادة رواتبكم بل تطلبون مشاركة أصحاب الاعمال في أعمالهم ٠

فاذا رفضوا هذا الطلب فان حقوقكم الاستيلاء على المعامل والمزارع والمتاجر والمصانع لانها ملك لكم بحكم الطبع وهو خير من حكم الشرع ٠

فاستولوا عليها ولا تخافوا فان الجيش معكم ٠

أيها الاخوة : هل تعرفون الذين خانوكم ٠ خانكم

اولئك الذين يسمون أنفسهم علماء معتدلين وما دروا أن الاعتدال لا يحصل حقا ضائعا • يقولون أنهم أهل العلم وانهم خرجوا من أحشاء الشعب ولذلك يرومون خدمته فاخبروهم أنكم في غنى عن خدمتهم اذا كانت على هذا المثال •• وخير لنا عدوانهم • انهم اقتدوا برؤساء الدين ومالوا لاصحاب الاموال ترويجا لمصالحهم واشباعا لبطونهم » •

ثم يوجه فرح أنطون صيحته الى العمال يدعوهم صراحة الى الثورة والاستيلاء على المصانع •

« أيها الاخوة •• نحن في غنى عن الجميع ، واعتمادنا على انفسنا طريقنا ، فلنتجمع اليوم على أبواب المصانع والمزارع والمتاجر لنناقش أصحابها الحساب ، ونريهم قوتنا ونبلغهم نهائيا اننا نطلب الموت، أو مشاركتهم في أرباح أعمالهم •• »(١) •

وتنفجر الثورة « ويتوافد العمال مئات من كل صوب وهم يصيحون « الاشتراك أو الموت » « تحيا الاشتراكية » لكن جنود الجيش كانوا يحرسون المصانع فصاح العمال « أيها الجنود •• نحن وأنتم اخوان لاننا من أبناء الشعب فلا تسيئوا الينا » •

وصدرت الاوامر للجنود بالهجوم •• فهجمت ، « غير أن صفا واحدا منها كان مؤلفا من ٥٠ جنديا ألقى سلاحه وانضم الى العملة » •

وهنا يصور فرح أنطون هذا الحدث الهام تصويرا رائعا •• خمسون جنديا فقط جعلوا صفوف الوف العمال تصيح فرحا « أما رؤساء الجند فعلى وجوههم الاصفرار من هذا

---

(١) ص ٤٣ •

التمرد وخافوا أن يحذو باقي الجند حذو هؤلاء المتمردين فيصير الامر للعمال ويقضى على السلطة القديمة » •

لكن الامر ليس بمثل هذه السهولة •• ولهذا فان فرحا يؤكد في النهاية أن « النظام العسكري » كان متأصلا في نفوس أولئك الجنود بتربية عدة سنين ، ولذلك كان أكثرهم يسيرون كالعميان الى حيث يقودهم رؤساؤهم ، ولو كان ذلك ضد مصلحتهم فتمكن الجند في ذلك النهار من تفريق العمال واعادة النظام » (١) •

لكن فرحا يواجه مأزقا خطيرا • فهو لا يريد للعمال الهزيمة ، لكنه وهو في عام ١٩٠٣ لم يكن يتصور كيف يمكن أن يكون الانتصار ، لقد أوقف الجيشان المتحاربان وجها لوجه • جيش البروليتاريا المسلح بالنظرية الماركسية وبقيادة ثورية ترفض « الاعتدال » وترفض « مساومات المثقفين الانتهازيين » وجيش رأس المال مسلحا بمساندة رجال الدين وخيانة المثقفين المعتدلين وفوق ذلك كله بقوى الجيش فماذا يمكن أن تكون النتيجة ؟ وأسقط في يد الرجل ولم يجد حلا ، هو يريد دولة اشتراكية ويرفض الرأسمالية ودولتها•• وهو يعرف كيف يصوغ النظرية الماركسية كلمات عنيفة ، لكنه يقف عند هذه الحدود ، تقيده ظروف مصر الاجتماعية ويقيده أيضا الضعف البادي على طبقتها العاملة وعلى قدراتها وعلى امكانياتها في ذلك الحين ••

•• ولا مخرج •• ، ولقد توقفت محاولا ان أتخيل فرح أنطون وهو يبحث عن خاتمة لكتابه أو روايته فلا يجد •• ان الانتفاضة الاشتراكية الوحيدة التي ربما أتيح له أن

---

(١) ص ٤٩

يدرسها وهي « كوميون باريس » قد انتهت بهزيمة ساحقة للعمال ، وما من أمل آخر يضيء ٠ وكان على الانسانية أن تنتظر أربعة عشر عاما حتى يمكن لاي كاتب أن يتخيل خاتمة سعيدة لروايته ٠٠ بعد قيام ثورة أكتوبر ١٩١٧ ٠٠

ولهذا فقد قرر فرح أن يهدم الحلم ٠٠ وأن يطوي الصفحة دون خاتمة للصراع فقد استيقظ حليم صباح اليوم التالي ليجد المدن الثلاث وقد أصابتها صواعق وزلازل وحرائق وسيول وأمطار ٠٠ وانتهت الرواية ، لكن معركة « فرح » لم تنته ٠٠

ولقد ألهمت هذه الرواية برغم نهايتها الشاعر مصطفى صادق الرافعي ليبدع قصيدة طويلة يهاجم فيها رأس المال ويتوعد النظام الرأسمالي بأكمله بثورة يقوم بها الفقراء٠٠(١)

يظن الاغنياء الفقر ضعفا
وكم من حية تحت الخراب
ولا يخشون من جاعوا لديهم
وليس أضر من جوع الذئاب
ألم تكن السفينة من حديد
فما للماء يخرقها بناب
اذا شمخت على الامواج انفا
فما بعد العلو سوى انقلاب

ولقد كانت « الدين والعلم والمال » بمثابة منعطف خطير

---

(١) الجامعة السنة الرابعة الجزء الخامس ـ اغسطس ١٩٠٣ ـ ص ٢٩٧ ٠

في فكر « فرح أنطون » ففيها حدد موقفه تحديدا صريحا واضحا ضد رأس المال والى جانب الاشتراكية ٠ وفيها أيضا استطاع أن يهدم كل حجج الرأسمالية وكل مبرراتها للبقاء٠٠

وقد أثارت هذه الرواية الكثير من الجدل والنقاش ويسأل قارىء « عن المصادر التي استقينا منها ذلك الكتاب ٠٠ فجوابنا على ذلك مختصر وجيز ، فان كتاب « الدين والعلم والمال » نتيجة مطالعات ثلاث سنوات في أهم الجرائد والمجلات الفرنسوية ، فقد اشتدت الازمة الاجتماعية في فرنسا في السنوات الاخيرة ، فكنا في أثنائها نقرأ كل ما تكتبه فيها ٠٠٠ فاذا حلل القارىء ذلك الكتاب تحليلا وجد أنه مبادىء كلها تختلج اليوم في أوروبا اختلاجا شديدا فكأنه يقف على أهم أخبار الامم الاوروبية ٠٠٠ وأحوالها الاجتماعية والسياسية » ٠

ويكتب آخر ليسأل فرح أنطون « أليس الافضل ترك هذه المسائل الخطيرة وعدم تحريكها في فضاء الشرق لئلا يلتهب بها ٠٠ فجوابنا على هذا السؤال الذي ننتظره ، اننا لا نريد أن نعرف حدا لحرية الفكر والنشر ٠٠ والجامعة انما تكتب عن لذة في الكتابة ولا جزاء لها الآن غير هذه اللذة ، فيوم يقال لها قيدي قلمك قليلا فانها تفضل تركه على تقييده ، اذ لا يبقى في حياة الكاتب من اللذة ما يساوي العناء٠ فابقوا لها على هذه اللذة على الاقل ولعمر الحق فاننا لا نفهم كيف يجوز للكاتب أن يشتغل بالصحو والمطر والنبات والحيوان والصين والفلبين وتاريخ الامم الغابرة ويترك أهم شيء يجب عليه الاهتمام به لانه ألصق الاشياء به وهو النظر في أعماق اساس الهيئة الاجتماعية لمحاربة الفساد الذي فيها واصلاح وتربية الاذواق الادبية وتكوين الضمائر الحية التي بدونها لا يكون الانسان انسانا فان هذا أفضل ما تحتاج

اليه اليوم بلادنا الشرقية والاهتمام به مقدم على كل اهتمام »(١) ٠

على أن البعض قد وجه نقدا موضوعيا لهذا الكتاب فان « محرر المنارة في البرازيل قد هاجم الكتاب لان المؤلف لم يحكم بين الاحزاب الاربعة أهل العلم وأهل الدين واهل المال والاشتراكيين بل حرقهم جميعا بنار وكبريت من السماء في ختام الرواية » ويعلق فرح أنطون قائلا « ولوم الكاتب في محله »(٢) ٠

وعندما أضرب « لفافو السجاير » اضرابهم الشهير من ديسمبر ١٨٩٩ حتى ٢١ فبراير ١٩٠٠ بدأت الصحف الرجعية تهاجم « الاعتصاب » باعتباره « بدعة أوروبية » واتهمت العمال بأنهم « يقلدون عمال أوروبا تقليد القرود » لكن فرحا أيد العمال المضربين وطالب الحكومة بالتدخل لمساندتهم ضد أصحاب الاعمال ٠ ويرد كرومر على هذا الطلب قائلا « ان الحكومة لا وظيفة لها سوى حماية حرية الصناعة ، وحرية العمل ، وحفظ الامن ٠ الا اذا اتفق الفريقان المختلفان على تحكيمها » ٠ ويعلق فرح على ذلك قائلا «ولكن أصحاب الاعمال لا يحبون هذا التحكيم ٠ » ويبدأ فرح أنطون حملة عنيفة على أصحاب الاعمال وعلى الحكومة وعلى النظام الرأسمالي كله أو كما أسماه نظام الاستفراد ويقول « أن الحكومة في مصر والامة المصرية تساسان اليوم بذات المبدأ الذي تساس به انكلترا نفسها وهو مبدأ الاستفراد فالقوي يقوى ويزداد قوة ، والضعيف يسقط ويزداد انحطاطا

(١) المرجع السابق ص ٢٩٦

(٢) الجامعة ــ السنة الرابعة ــ ٩ ، ١٠ ص ٣٦٩ ٠

وسقوطا » ٠

ويتصادف أن ينشب في ذلك الحين اضراب لعمال الموانىء الفرنسية ويقرأ فرح تعليقا لاحد الاقتصاديين الفرنسيين على الاضراب يقول فيه « ان الشريعة الاسلامية قد حلت هذه المشكلة حلا جميلا ، فانها توجب على الحكومة المداخلة بين أصحاب الاعمال والعمال والتحكيم بينهما »(١)٠

ولجأ فرح أنطون الى الشيخ محمد عبده يستفتيه في مدى التزام الدولة بضرورة التداخل في المنازعات بين العمال وأصحاب الاعمال ، ورد الشيخ محمد عبده بفتوى بالغة الاهمية وبالغة الدلالة في آن واحد فقد أدانت فتواه أسلوب الاستغلال الرأسمالي ادانة صريحة ٠٠(٢) ٠

وفرح أنطون يدعو للاشتراكية في صراحة وقوة ، بل هو يدعو الى ضرورة « تحريض أنصارها على تنفيذها بالقوة ٠٠٠ والا بقيت نظرية الى ما شاء الله » ٠

لكنه يستخدم في بعض الاحيان عبارة « الاشتراكية الانجيلية » مؤكدا أنها مبتغاه الاخير ، فاذا كان موقف فرح من الدين معروف لنا ، فان ذلك يثير دهشتنا البالغة ويحاول البعض أن يفسر ذلك بأن فرح انما كان يتستر خلف كلمة « انجيلية » ليجد الفرصة لنفسه في هذا الخضم الصعب لينطق بكلمة الاشتراكية ٠٠

لكننا يتعين علينا أن نضع أيضا فياعتبارنا تأثره الشديد

(١) الجامعة ــ اول سبتمبر ١٩٠٦ (وفيه يستعيد فرح قصةالاضراب ولجوءه لطلب فتوى من الامام محمد عبده) ٠

(٢) راجع النص الكامل للفتوى ٠ محمد عماره ــ الاعمال الكاملة للامام محمد عبده ــ الجزء الاول ــ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ بيروت ٠ ص ٦٧٣ ٠

بفكر رينان الذي ينقل عنه الفقرة التالية « ٠٠٠ كانت الطائفة المسيحية الاولى بمنزلة الفردوس لهؤلاء الفقراء ، فانها كانت عبارة عن أخوية ساذجة الاخلاق لطيفتها ، فيها المعيشة هادئة مضمونة ، وآمال في المستقبل عظيمة ، ولذلك أقبل الناس عليها ، ولان الداخل فيها يبيع أملاكه ويدفع ثمنها الى صندوق الطائفة ٠٠ وهنا شبه عظيم بين هذه الحالة وحالة بعض المبادىء الاشتراكية التي قامت في هذا العصر ، ولكن الاشتراكية المسيحية كانت مؤسسة على عاطفة دينية وأما الاشتراكية العصرية فهي منفصلة عن هذه العاطفة »(١) ٠

وعلى أية حال فان فرح كانت تفلت منه في بعض الاحيان عبارات عنيفة تدعو الى فرض الاشتراكية بالقوة وفي نهاية أيامه « صار يعتقد أن بث المبادىء الاشتراكية بين طبقات الناس من أعلاها الى أدناها لا يكفل تغلبها وتسليم السلطة والسيطرة لها ، حتى ولو كان كل فرد من غني وفقير معتقد أنها نظام حق كافل لراحة الجمهور ٠ لان من كان في حوزته قوة مالية لا يتنازل عنها عن طيب خاطر وان كان يعتقد أنه لا يستحقها وانها من حق غيره »٠

ولهذا فان ذلك « الاشتراكي الانجيلي » « يرحب بالبلشفية »(٢) ٠

ويؤكد نقولا الحداد ايضا ان فرحا « قد اطلع على مؤلفات ومقالات وأخبار عديدة تنفي معظم ما شنعه خصوم البلشفية عليها ٠٠ وكان يؤكد أن الحركة البلشفية ، كتجربة

(١) الجامعة السنة الرابعة ـ الجزء الاول فبراير ١٩٠٣ ص ٢٢ ٠

(٢) نقولا الحداد ـ بحث تحليلي في حياة الفقيد ، تطور نفسه من النظري الى العملي ـ ملحق مجلة السيدات والرجال ـ المرجع السابق ص ١٣١ ٠

اذا فشلت أضرت الحركة الاشتراكية أمدا مديدا » (١) ٠

وعلى صفحات الاهالي كان تعاطفه مع « الثورة البلشفية » واضحا ٠٠ حتى في نوعية الاخبار التي يبرزها ٠ « جاء من لندن أن مؤتمر الاشتراكيين الفرنسي في تور قرر الانضمام الى المؤتمر الشعوبي الثالث (الدولية الثالثة) ٠٠ ويعد هذا العمل كحلقة من سلسلة التطور الاشتراكي في الغرب ، كما أنه يعد فوزا مبدئيا لنظرية اشتراكيي موسكو » (٢) ٠

وخبر آخر « بعد اعلان الشيوعية في أرمينيا السوفيتية انسحبت لجنة الاعانة الامريكية ، فتوقفت بسبب ذلك الامدادات التي كانت تأتي بها اللجنة الى الارمن ٠٠ ولم يمر قليل من الزمن حتى تلقت مدينة اريفان حاضرة الارمن من موسكو ستين مركبة محملة غذاء وملابس فدل ذلك على أن كومون الروس لم ينسوا اخوانهم الارمن »(٣) ٠

وهو يكتب عديدا من المقالات يطالب فيها بدراسة الاوضاع في روسيا السوفيتية وتأمل التجربة التي تطبق هناك « ٠٠ انه لمن أوجب الواجبات على المدنية الغربية جميعها ان لا تترك عهدا تاريخيا ذا صبغة استثنائية ،وعلى جانب عظيم من الخطورة دون أن تكون على علم تام بعناصره وطبيعته والروح السائدة فيه ٠ وانه لاجرام عظيم ذلك العجز المخجل الذي ظهرت به أوروبا الغربية جميعها عن تفهم حقيقة روح المثل الروسي الاعلى ٠ ونظن أننا لا نخرج عن دائرة الحقيقة

(١) نقولا الحداد ـ ترجمة الفقيد ـ ملحق مجلة السيدات والرجال ـ المرجع السابق ص ١٤ ٠

(٢) الاهالي ٣ـ١ـ١٩٢١ ٠

(٣) الاهالي ٢٦ـ١ـ١٩٢١ ٠

اذا قلنا أن قوة الدفع التي شهدت مظاهرها في روسيا السوفيتية .. لم تكن لتقوى على اخراجها نظم آلية فحسب بل من المحقق أن هاتيك النظم كانت تدمر تحت القوة الضاغطة بقليل من العناء لو لم تكن مرتكنة على عامل روحي ثائر . »(١) .

ثم هو يهاجم الدعايات الغربية ضد روسيا السوفيتية ويقول أن صحافة الغرب « ذات شهرة طائرة في تحريف الاخبار ، بل وخلقها ثم نشرها باعتبارها حقائق واقعة » .

ويروي قصصا نشرتها صحيفة فنلندية عن انتصار الجيوش البيضاء وعن قيام ثورة مضادة في بتروجراد ويصفها بأنها تشبه « الروايات الهزلية » ويقول « ومن الغريب أنه نسمع بانتصارات حاسمة لجنود الثورة (المضادة) وهزيمة الجيوش البلشفية ، بل وفرار لينين وذعر تروتسكي ، اذا بنا نسمع من المسيو كراسين مندوب حكومة السوفييت في لندن وهو على اتصال لاسلكي مع حكومته أنه لا يزال يتلقى الاوامر كالمعتاد من موسكو وان أنباء الثورة مفتعلة » .

ثم يؤكد فرح في نهاية المقال « أنه لا خوف على الحكومة البلشفية من هذه الاضطرابات التي تحصل من بين آن وآخر »(٢) .

وعندما تشن بولندا هجومها على الاتحاد السوفيتي وتأتي أنباء مبالغ فيها عن انتصارات كبيرة للبولنديين يعبر فرح صراحة عن انزعاجه داعيا السوفييت الى مزيد من الحزم في مواجهة المعتدين ويقول « وفي الواقع أنه اذا انصرف

---

(١) الاهالي ١٥ـ٢ـ١٩٢١ .
(٢) الاهالي ٢٧ـ٣ـ١٩٢١ .

البولشفيون الى أن تكون كل قواهم عمالا في عمال وأن يدمروا كل ما لديهم من سلاح وذخيرة ليحولوه الى آلات تزرع ومحاريث تشق الارض وأدوات تصنع ، ثم هدموا القلاع وجعلوا من الثكنات مساكن ومن الجنود صناعا ومزارعين ، فان هذا أدنى في الحقيقة الى أن يكون الانسانية الراقية . ولكنه من جهة أخرى أدنى الى تهيىء الطمع في البلاد . فالسلام الحقيقي لا يشترى الا بثمن واحد هو أن تكون الامة مستعدة في كل وقت للدفاع عن نفسها .. ومن لا يظلم الناس ، يظلم(١) .

وتوالي « الاهالي » نشر بيانات لاستنكار الهجوم البولندي على روسيا السوفيتية وتنشر بعناوين كبيرة « احتجاج زعماء العمال في انجلترا على الهجوم البولندي على روسيا البولشفية »(٢) .

ثم تنشر « الاهالي » في ابتهاج شديد نبأ « فشل الهجوم البولندي ولم تفض دسائس أعيان روسيا والمانيا من جهة والعسكرية الانجليزية والفرنسية من جهة أخرى الى نتيجة ما » .

لكن فرحا يستخلص من ذلك نتيجة هامة « ولعل التحقق من فشل هذا المجهود الاخير في محاولة اسقاط جمهورية السوفييت يسهل المفاوضة الدائرة الآن بين مندوبي تلك الجمهورية وذوي الشأن في لندن »(٣) .

وهكذا يتنبأ « فرح أنطون » بواحدة من أهم حقائق

---

(١) الاهالي ٧ـ٥ـ١٩٢١ .
(٢) الاهالي ١ـ٦ـ١٩٢١ .
(٣) الاهالي ٩ـ٦ـ١٩٢١ .

العصر ، فلقد فشل الاستعماريون في سحق الدولة السوفيتية .. اذا فلم يعد مناص – طال الوقت أم قصر – من الاعتراف بوجودها واقامة علاقات اقتصادية معها ..

وتحت عنوان « الاقتصاد فوق كل شيء » يقدم فرح أنطون بحثا نظريا قيما عن دور العوامل الاقتصادية في السياسة ، قائلا « نظن أن القراء ليسوا بحاجة اليوم الى تذكيرهم بأهمية العوامل الاقتصادية أهمية دعت في كثير من الظروف الى تغيير البرامج السياسية لمختلف الدول ومتباين الامم .. »

ثم يقول « ... وهنالك في روسيا السوفيتية تدعو العوامل الكثيرة في بلاد غرب أوروبا الى مجانبتها ومباعدتها ولكن العوامل الاقتصادية برهنت مرة أخرى على أنها تتغلب على ما سواها ، حتى ولو كان مرتبطا بالنظم الاجتماعية وصيانتها فهذه بريطانيا تقارب أن تستعيد كل علاقاتها التجارية مع موسكو بعد المفاوضات الطويلة التي أجرتها مع المسيو كراسين » (١) .

***

وتنتهي الرحلة المجيدة سريعا .. تماما كرحلة شهاب مسرع . ويموت فرح والقلم في يده محاربا به ، ويكون آخر ما يكتبه تفنيد عنيف لاعلان « استقلال مصر » مؤكدا صورية هذا الاستقلال وعدم جديته مطالبا بالاستقلال التام والكامل دون قيد أو شرط .

---

(١) الاهالي ١٣-١-١٩٢١ .

ويموت « فرح » ويجتمع في حفل تأبينه خصوم اليوم والامس وأصدقاء اليوم والمستقبل ..

فقد كان رئيس لجنة الحفل الشيخ رشيد رضا خصم الامس العنيد ..

وكان أحمد حافظ عوض مدعوا لالقاء كلمة في الحفل ممثلا لحزب الوفد لكن وزارة الداخلية استدعته في نفس موعد الاحتفال لمنعه من الحضور .. فأناب عنه في القائها رفيق جبور ..

- ٣ -

رفيق جبور

ثائر من جبل لبنان ·· في جيش البرولیتاریا المصرية

« ان العمود الفقري للحزب ، ودماغه المفكر وقلبه النابض يجب أن يكون من العمال ، وعلى قانون الحزب الاحتياط الشديد لعدم تمكين بعض أفراد الطبقات الاخرى التي تندمج في الحزب من السيطرة عليه والتلاعب بمصالحه ، بل يجب أن يكون الحزب حزب عمال للعمال ومن العمال ، أما من ينضم اليه من أبناء الطبقات القريبة جدا من الطبقة العاملة فيجب أن يبقى دائما تابعا للحزب الى حد ما ، لكن على كل حال يجب أن تكون وتبقى السيطرة في الحزب للعمال وحدهم .. »

رفيق جبور

... ولانه انحاز الى صفوف العمال والفلاحين جنديا مقاتلا ، بل واحدا من قواد جيشهم ، ولانه لم يكتف بالكلمات بل خاض غمرة الصراع الطبقي عضوا في حزبهم ، فان أحدا لم يهتم بمصيره ، لم يقيموا له حفل تأبين ، ولا جمعوا مقالاته في كتاب ولا حتى أشاروا اليه اشارات عابرة ..

تصوروا أنه صفحة من كتاب غير مقروء فطووها خلسة، محاولين أن يغافلوا التاريخ ..

وبحثت عن كلمات قالوها عنه فلم أجد .. سوى وسام أضعه على صدره .. انه قرار اتهام !

« نحن ... رئيس نيابة مصر

قرار اتهام مقدم من النيابة العمومية لحضرة قاضي الاحالة بمحكمة مصر الاهلية في قضية الجناية رقم ٨٢٧ شبرا سنة ١٩٢٥ ..

تتهم النيابة العمومية

رفيق جبور سن ٤٣ سنة مولود بجبل لبنان – محرر بجريدة النظام

وآخرين ....

بأنهم في المدة بين ٦ أكتوبر سنة ١٩٢٤ الموافق ٧ ربيع أول سنة ١٣٤٣ ، و٣٠ مايو ١٩٢٥ الموافق ٧ ذو القعدة سنة ١٩٤٣ بمدينتي مصر والاسكندرية :

أولا : اتفقوا اتفاقا جنائيا بأن اتحدوا مع آخرين غيرهم على

ارتكاب الجنايات والجنح الا وهي : جنايات القتل العمد ونشر الافكار الثورية المغايرة لمبادىء الدستور المصري الاساسية وتحبيذ تغيير النظم الاساسية للهيئة الاجتماعية بالقوة والارهاب وبوسائل أخرى غير مشروعة المنطبقة على المادة ١٩٤ ، ١٥١ فقرتي ٢ ، ٣ ، من قانون العقوبات ، وجنح انتهاك حرمة ملك الغير المنطبقة على المواد من ٣٢٣ الى ٣٢٧ من قانون العقوبات وقد حرضوا جميعا على الاتفاق الجنائي المذكور وأداروا جميعا حركته ·

ثانيا : اشتركوا في اتفاق جنائي الغرض منه ارتكاب جريمة تأليف عصابة من العمال وصغار الفلاحين لمهاجمة طائفة من السكان وهي الجناية المنطبقة على المادة ٨٠ من قانون العقوبات ، وقد حرضوا جميعهم على الاتفاق المذكور وتداخلوا في ادارة حركته ·

ثالثا : نشروا وهم متفقون جميعا على ذلك أفكارا ثورية مغايرة للمبادىء الاساسية لدستور الدولة المصرية وحبذوا تغيير النظم الاساسية للهيئة الاجتماعية في البلاد المصرية بالقوة والارهاب وبوسائل أخرى غير مشروعة ، وذلك علنا بطريق بيع وتوزيع كتب وجرائد ونشرات مطبوعة وغير مطبوعة والقاء مقالات في المحال والمحافل العمومية وبواسطة اشهار رسوم وتصاوير ، وهذه الكتب والجرائد والنشرات والمقالات والوسائل الاخرى تحوي أمورا وأفكارا تخالف مبادىء الدستور المصري الاساسية ومن شأنها تغيير النظم الاساسية للهيئة الاجتماعية مثل الغاء نظام الملكية الفردية المقرر في دستور الدولة واستبداله بنظام شيوعي بطريق الثورة والقوة والتهديد ، وذكر فيها أن النظم التي

يسعون اليها أفضل من النظم الحالية وانها حرية أن تحقق ، وانه يجب العمل والسعي لتحقيقها ، وقد ألفوا حزبا لهذا الغرض سموه بالحزب الشيوعي المصري التابع للشيوعية الدولية الثالثة ، وقد عمل ذلك الحزب على مقتضى شروط تلك الدولية وبناء على تعاليمها التي ترمي الى الغاء الملكية الفردية ومصادرة الاملاك من أصحابها وحجزها عنهم وغير ذلك ، بطريق القوة والتهديد والطرق الاخرى الغير مشروعة · وأخذ الحزب المذكور ينشر دعوته الضارة المذكورة بالطرق العلنية المختلفة المبينة آنفا بين العمال وصغار الفلاحين وغيرهم ·

تحريرا في : ٨ سبتمبر ١٩٢٥

٠٠٠ في ١٩١٩ ، كانت مصر تخوض غمار الثورة التي طالما ذابت شوقا الى ممارستها ٠٠

وفي خضم هذه الثورة مارس العمال والفلاحون العنف الثوري حتى مداه وكانت مظاهراتهم وهجماتهم على قوات الاحتلال تحيل مصر الى ميدان ثوري حقيقي ، وتساقط المئات من الشهداء ، والتهبت مصر من أقصاها الى أقصاها بعمل ثوري هز قواعد الاحتلال ، بل وبث الرعب في أوصال قيادة الثورة من البرجوازيين وكبار الملاك ٠٠

وفي ٩ مارس ١٩١٩ كانت طلقات الرصاص تدوي في شوارع القاهرة بينما أعضاء الوفد المصري يوجهون رسالة الى السلطان فؤاد قالوا فيها « ان أعضاء الوفد لم يتعدوا حدود القانون ، ولم يهيجوا في البلد مظاهرة ولم يحركوا ساكنا »(١) ٠

وبينما الثورة تلتهب في كل مكان من مصر يكتب سعد زغلول الى عبد الرحمن فهمي ناصحا « ولا يحسن التداخل في مسائل الاعتصابات ولا غيرها من الامور التي حرمتها السلطة العسكرية بل يجب تجنبها حتى لا يكون للخصوم حجة في أي شيء كان »(٢) ٠

---

(١) محمد الغتيت ٠ ثورات العرب ٠ ص ٦٤ ٠

(٢) محمد انيس ــ دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩ ص ١٠٢ ٠

بل أن قادة الوفد كانوا أكثر صراحة فوصفوا الثورة بأنها « حركة مخيفة تخشى عواقبها »(١) ٠

ولقد كانوا صادقين كل الصدق ، فان الثورة كانت تخيفهم ، وكانوا يدركون عواقبها بعد أن تهدأ الامور ٠

وهكذا مضت أحداث الثورة في اتجاهين ،قيادة تدعو للعمل « بالوسائل المشروعة » وجماهير تمارس العنف الثوري ٠٠ وفي خضم هذا التناقض قرر الانجليز ارسال«لجنة ملنر » لتقصي الحقائق والاستماع الى مطالب ورغبات المصريين ٠ وارتبكت صفوف قيادة الوفد بالقاهرة ، ماذا تقول اللجنة ؟ ومن يقابلها ؟ وما هو موقف الزعماء بالمنفى ؟ وماذا لو قابل اللجنة بعض الخونة وقبلوا منها أو قبلت منهم حلولا لا تمثل ارادة الامة ؟ وأوشك الانقسام أن يدب في صفوف الثورة ٠ وبينما الحيرة تلف الجميع خرجت جريدة النظام باقتراح بأن يقاطع الجميع لجنة ملنر ، وألا يتفاوضوا معها ، أو يتقدموا اليها بأية مطالب ٠ وتلقف الجميع الشعار ،وصار شعار مصر كلها ٠٠ الى درجة أن الفلاحين المصريين ظلوا لفترة طويلة يرفضون التحدث الى أجنبي خشية أن يكون عضوا في لجنة ملنر ، ورفض كل مصري مخلص أن يقول كلمة واحدة لملنر أو لجنته ، وبدأت جماعات الشباب والطلاب الثوريين تحاصر فندق الكونتيننتال ــ حيث تقيم اللجنة ــ لتمنع أي اتصال بها ، وكان الحصار محكما الى حد أن كل تحركات اللجنة قد رصدت ، وأن كل من اتصل بها سرا أو جهرا رصد اسمه وعومل لفترة طويلة معاملة الخائن ٠٠

وكانت مظاهرة رائعة ، فمن حيث أراد الانجليز تقسيم

---

(١) الغتيت ــ المرجع السابق ص ٧٥ ٠

الصفوف بلجنة ملنر ، واجهت مصر هذه اللجنة موحـــدة
الصف بصورة لم يسبق لها مثيل ، وفشلت لجنة ملنر ، ودخل
النضال المصري مرحلة جديدة ٠

لكن الجميع قد نسوا أن صاحب فكرة مقاطعة لجنـة
ملنر كان محرر جريدة النظام ٠٠ رفيق جبور ٠

***

ورفيق جبور صحفي مخضرم عمل لفترة طويلة محررا
لجريدة النظام الوفدية ، وقبل النظام عمل في عديد من الصحف
وقد أمكن تتبع مقالات له منشورة في بعض الصحف يرجع
تاريخها الى عام ١٩١٤ ٠

وعلاقته بجريدة النظام تستحق التأمل ٠٠

فصاحب جريدة النظام هو السيد أفندي علي ٠ فمن هو
السيد أفندي علي هذا ؟

يعود بنا البحث الى الوراء حتى عام ١٩٠٩ ، عندمـا
بذلت أول محاولة جدية لتأسيس حـزب عمالي ، وكان هو
« مدير » الحزب ٠٠

وتنشر الاهرام بيانا يقول « كلنا يعلم مركز العمال في
أوروبا ، فالعامل هناك لا فرق بينه وبين القاضي والمحامي ٠٠
ولما كان الانسان من فطرته الطبيعية ميال الى الارتقاء قـام
جماعة من خيار العمال المصريين الذين يقدرون الاشيـاء ،
وأسسوا حزبا باسمهم ليربط كلمتهم ٠٠ »

ويقول البيان « ان الجلسة الاولى قد انعقدت وحضرها
جمع غفير من العمال والوجهـاء وان الحزب انتخب السيد

أفندي علي مديرا له والسيد محمد أحمد الحسن رئيسا له»(١)

وتختفي هذه المحاولة ، كمحاولات أخرى غيرها ، لكن
اسم السيد أفندي علي يظهر فيما بعد ، وفي خضم ثورة ١٩١٩
صاحبا لجريدة وفدية اسمها « النظام » يتولى تحريرهـا
« رفيق جبور » ٠

والحقيقة أن علاقة رفيق جبور بهذه الجريدة التـي
كانت تعتبر لسانا للوفد تستحق التأمل فقد استخدم رفيق
جبور هذا المنبر الوفدي استخداما ذكيا دفاعا عن مبادئـه
وآرائه ذلك أن نظرة واحدة على « النظام » توحي بشكل كاف
بأنها تختلف اختلافا بينا عن الصحف الوفدية الاخرى ، فهي
على الدوام أكثر تقدما ، وأكثر تعبيرا عن مشاكل الجماهير ،
لكنها كانت في النهاية جريدة وفدية ٠

ولا بد أن الامر قد تطلب مهارة فائقة من رفيق جبـور
ليمارس دوره بنجاح طوال أكثر من خمس سنوات ٠٠

وعندما قبض عليه في قضية شيوعية ١٩٢٥ كواحـد
من قادة الحزب الشيوعي ، أثار الامر ضجة كبيرة جـدا ،
وحاول الرجعيون المصريون والمستعمرون الانجليز استخدام
هذا الامر للايحاء بوجود علاقة سرية بين الوفد والحـزب
الشيوعي محاولين الاضرار بالحزبين معا ٠

الاضرار بالوفد متهمين اياه بأنه على « علاقة بدسائس
البلاشفة » متحدثين عن « الوسائل التي يستخدمها بلا ضمير
للحصول على المساعدة الاجنبيـة لتأييد دسائسه ضـد
البريطانيين »(٢) ٠

والاضرار بالشيوعيين بمحاولة الصاق تهمة « الارهاب»

---

(١) الاهرام ١٦ـ٧ـ١٩٠٩ ٠
(٢) الاهرام ٣ـ٦ـ١٩٢٥ (نقلا عن المورننج بوست الانجليزية) ٠

بهم ..

ويكتب مراسل المورننج بوست بالقاهرة قائلا «والظاهر أنه توجد روابط بين مساعي البلاشفة وحملة القتل الموجهة ضد البريطانيين . وبين المقبوض عليهم اثنان من محرري الصحف الوفدية »(١) .

وتقول الديلي تلجراف « وأعظم ما يلفت الانظار فيما اكتشفه البوليس ، هو ما يدل على العلاقة الوثيقة بين دسائس البلاشفة وحملة القتل ، وعلاقتهم أيضا بالوفد لانه يوجد بين المقبوض عليهم طاهر أفندي العربي المحرر بكوكب الشرق احدى الصحف الوفدية الكبرى ، ورفيق جبور المحرر بجريدة النظام وهي من الصحف الوفدية أيضا »(٢) .

وهكذا يضطر سعد زغلول .. الى أن يذكر خصومه « بأن وزارة الشعب كانت عنيفة على الشيوعيين ، وانها أرسلت الكثيرين منهم الى القضاء »(٣) .

ولقد عرفنا رفيق جبور ، فمن هو طاهر العربي ، واحد من شباب الحزب الوطني قبض عليه عام ١٩١٢ في محاولة لاغتيال كتشنر وقضى في السجن اثني عشر عاما .. وأفرج عنه ليعمل في جريدة كوكب الشرق .. ثم تمتد خيوط البحث لتقودنا من جديد نحو الدور النشيط لرفيق جبور ..

ولندع طاهر العربي ليروي القصة بنفسه « كنت أعرف زميلا صحفيا يعمل في جريدة النظام هو الاستاذ رفيق جبور وكنت أتردد عليه من وقت لآخر في محل عمله ، وذات يوم

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الاهرام ١-٨-١٩٢٥ .

(٣) الاخبار ٢٩-٨-١٩٦٣ ، نقلا عن مذكرات سعد زغلول عن يوم ٤-٦-١٩٢٥ .

عرفني بصديق له كان زائرا في مكتبه ، قال أنه مستر كونستانتين فايس ، مكاتب جرائد عمالية دولية حضر لمصر لدراسة حالة العمال والفلاحين ، وقدمني اليه قائلا : هذا صديقي طاهر ضحية من ضحايا الاستعمار البريطاني ، قضى في السجن اثني عشر عاما في محاربة الانجليز فهو يكرههم ويكره كل ما يتعلق بهم »(١) .

بقي أن نعلم أن «كونستانتين فايس ، هو الاسم السري لافيجدور الشخصية الشهيرة في مكتب الشرق الاوسط بالكومنترن » * .

***

ورفيق جبور واحد من رعيل من اللبنانيين خاضوا المعركة في صفوف الشعب المصري جنودا بل قوادا في جيش البروليتاريا المصرية ، فعند تأسيس الحزب الاشتراكي المصري في أغسطس ١٩٢١ كان من بين مؤسسيه عدد من أعضاء « جماعة لبنان الفتى » ولبنانيين آخرين . وهكذا انتظم في صفوف البروليتاريا المصرية رجال مثل أنطون مارون ، فؤاد الشمالي ، أديب قشعمي ، شفيق بأسيور ، رفيق جبور .

واذا كان الجميع يذكرون أنطون مارون - المحامي الشهير أمام المحاكم المختلطة الذي هجر كل شيء الا الدفاع عن حقوق

---

(١) محمود طاهر العربي - هذا المجتمع الظالم - الطبعة الاولى - دار المستقبل ص ١٩٨٠ .

* للمعلومات عن شخصية افيجدور راجع : والتر لاكور - الاتحاد السوفياتي والشرق الاوسط ترجمة المكتب التجاري ببيروت عام ١٩٥٩ - حاشية ص ١٥٥ .

العمال ، والذي كان قائدا جماهيريا وفعليا لاتحاد نقـــابات العمال ولجماهير العمال المصريين الى درجة أن انجرام بك أحد كبار رجال البوليس قال في شهادته أمام محكمة الجنايات التي تحاكم مارون « ان العمال كانوا يعملون بنصائح الاستاذ مارون ورفاقه ، وانه لم يكن سهلا على البوليس اخراج العمال من المصـــانع • ولكن اخراجهم كان من أيسر الامور عـلى الاستاذ مارون ، كما أن كلمة واحدة منه كانت تكفي لانهـاء احتلال العمال للمصنع »(١) •

ثم اختتم مارون حياتـــه في معركة بطوليـــة خاضهـا المسجونون السياسيون في سجن الاسكندرية مطالبين بمعاملة انسانية ، واستشهد مارون مضربا عن الطعام •• حتى الموت، دافعا من حياته ثمنا لكسب حقـوق المسجونين السياسيين جميعـا •

فاننا نذكر لرفيق جبور أنه كان واحـــدا من الذين واصلوا المسيرة فوق الشوك وواجهوا العاصفة بشجاعـــة نادرة ، وتشبثوا بحقهم في الدفاع عن مبادئهم وعن شعبهم حتى آخر رمق ••

***

•• وفي عام ١٩٢٥ كانت ماكينة الارهاب تدور بأقصى سرعتها ، ليس ضد الشيوعيين وحدهم وانما ضد كل القوى الوطنية والتقدمية •

وسعد زغلول بعد أن أنجز مهمـة ضرب الحركـــة العمالية بأقصى عنف ممكن وبعد أن حل حزبها السياسي ، وطارد قادته وكوادره وأغلق دوره ، وبعد أن بذل كل جهده

---

(١) الاهرام ٢٩ـ٩ـ١٩٢٤ •

محاولا أن يقدم البديل للعمل الشيوعي وسط العمال بتأسيس اتحاد عمال وفدي برئاسة عبد الرحمن فهمي •• واستخدم كل ثقل زعامته الجبار ، وكل جماهيريته ، وجمـــاهيرية حزب الوفد في المعركة ضد الحزب الشيوعي ، بعد أن أنجز هـــذه المهمة أصبح هو أيضا عنصرا غير مرغوب فيه من قبل الاحتلال والسراي •

واذا كانت محكمة جنايات الاسكندرية ، قد أصدرت أحكامها القاسية بالسجن على أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في ٦ أكتوبر ١٩٢٤ ، فقد تلتها مباشرة ـ في ١٩ نوفمبر ـ حادثة السردار المعروفة واستقال سعد مرغما •

وجاءت حكومة زيور التي واصلت حملة تصفية الحزب الشيوعي في هيستيريا واضحة ، فأصدرت قرارا بمنع دخول السفن السوفيتية الى الموانىء المصرية وتنشر الاهرام قصة عن وصول سفينة « بلشفية » الى الميـــاه المصرية •• « وصلت الى الاسكندريـــة أمس باخـــرة روسية بلشفية تدعى « تشيشيرين » تنقل بضاعة الى هذا القطر ، وربما كان عليها بعض الركاب أيضا ، فلم تكد تصل الى الميناء الخارجي حتى أصدرت السلطة المحلية أمرا الى البوليس بمراقبتها وحراستها ومنعها من الدخول الى المرفأ • فأوقفت في الخارج ولا تزال حتى الآن تحت حراسة الشرطة والمفهوم أن الحكومة ستأذن بتفريغ شحنتها حيث هي راسية ، ثم تأمر بالانصراف فتنصرف غدا ، ويظهر أن الباخرة « تشيشيرين » هذه لا تدري ما نحن فيه من الانهماك في قضيـــة الشيوعية البلشفية في هـــذه الايام »(١) •

---

(١) الاهرام ١٩ـ٦ـ١٩٢٥ •

كذلك أصدرت الحكومة قرارا بمنع السماح ببيع أو تداول الكتب الاشتراكية ، أو جلبها من الخارج ، وأصدرت قرارا بمنع دخول جريدة « الاومانتيه » الفرنسية ، وجريدة « الانسانية » التي كانت تصدر في بيروت أو أية جريدة أو جرائد أو مجلات شيوعية أو اشتراكية .

ويعلق الاهرام على ذلك قائلا « عزمت السلطة عزما ثابتا على مكافحة الشيوعية ، ومبادئها ودعاتها في هذا القطر ، وغدا هذا العزم يتضح من اتساع نطاق المساعي المبذولة لاستئصال شأفة ذلك الداء الاجتماعي الخطير . وقد صادر البوليس مؤخرا بالاسكندرية بعض كتب اشتراكية وجدت عند شاب يوناني يقول عنه أصحابه أنه لا علاقة له بالحركة الشيوعية مطلقا ، وقد أرسل هذا الشخص الى القاهرة للبحث في أمره »(٢) .

وكان كل ذلك يجري في ظل حملة عنيفة من الكتابات المعادية للفكر الاشتراكي أسهمت فيها معظم الصحف والمجلات وصدرت من أجلها عشرات الكتب .

لكن الامر لم يكن بهذه السهولة .. فحتى أحمد الصاوي محمد الذي كان أحد متزعمي الحملة المعادية للشيوعية .. اضطر الى أن يقول أن الشيوعية قد أصبحت « شوكا دق جذوره العميقة في الارض » .

وفي نفس اليوم الذي أصدرت فيه محكمة جنايات الاسكندرية حكمها على أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي .. أي في ٦ أكتوبر ١٩٢٥ ، تكونت لجنة مركزية جديدة .. وبدأت تمارس قيادة العمل السري في ظروف بالغة الصعوبة

(١) ١٦-٦-١٩٢٥ .

.. وكان أحد سكرتيري اللجنة المركزية رفيق جبور .

ولم تكن الحساب المنبر العلني الوحيد الذي حاول رفيق جبور النضال من خلاله ، فقد أسهم أيضا في تأسيس « لجنة الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين » وهي لجنة جماهيرية تأسست خلال فترة الانتخابات النيابية عام ١٩٢٥ بهدف تنظيم عملية تقديم مرشحين من العمال والفلاحين في الانتخابات ووضعت هذه اللجنة برنامجا طالبت العمال والفلاحين فيه بألا « يعطوا أصواتهم لاي شخص لا يقبل هذا البرنامج ويعد بتنفيذه »(١) . وطارد البوليس اللجنة وصادر بيانها وبرنامجها ومنع طبعه وتوزيعه ..

***

ولسنا نريد أن نتابع هنا نشاط الحزب ومسيرته في هذه الفترة ، فقط نريد أن نلقي بعض الضوء على نشاط واحد من قادته الذين تحدوا الارهاب وخاضوا المعركة حتى نهايتها . والى جانب العمل السري الذي يصعب علينا تتبعه ، فقد خاض رفيق جبور المعركة من أجل تأسيس منبر علني للحزب هو مجلة الحساب .

لكن الحساب لم تكن مجرد منبر علني لحزب سري فقد نجح رفيق جبور في أن يجعل منها أيضا مجالا تمارس كوادر الحزب عملا سريا نشيطا تحت ستاره ، فالشيخ شاكر عبد الحليم الذي كان مسؤولا عن نشاط الحزب في الوجه البحري

(١) راجع النص الكامل للبرنامج في : د. رفعت السعيد . اليسار المصري . دار الطليعة بيروت – ص ١٧٦ .

كان يستند في حركته الواسعة عبر مدن وقرى الوجه البحري الى صفته كوكيل متجول للحساب في الوجه البحري ٠ فقد نشرت الحساب الاعلان التالي في العدد ١٨ «من ادارة الجريدة: انتدبت جريدة الحساب حضرة الاستاذ الشيخ شاكر عبد الحليم وكيلا متجولا في الوجه البحري وهي ترجو العمال والنقابات وكل من له علاقة بها اعتماده في كل الشؤون الخاصة بها ـ الادارة » وفي نفس العدد اعلان آخر « وكيلنا في الاسكندرية ، تعلن ادارة جريدة الحساب أن وكيلها العام في الاسكندرية هو حضرة الاديب أحمد أفندي حشمت حماد ،وهي ترجو العمال والنقابات وكل من له علاقة معها في الاسكندرية باعتماد حضرته في كل أعمال الجريدة »(١) ٠

ولكن الحصول على ترخيص باصدار جريدة ليس بالمسألة السهلة بالنسبة لاي واحد من الكوادر الحزبية ، وتجربة الحزب في ذلك لم تزل ماثلة في أذهان كل كوادره عندما طلب ترخيصا باصدار جريدة فرفضت الداخلية ، فاستأجر مجلة الشبيبة وأصدر منها عددا واحدا ثم أصدرت الداخلية أمرا باغلاقها ٠٠ ثم عاد فطلب ترخيصا من جديد دون جدوى ٠

وعلى أية حال فقد طلب رفيق جبور ترخيصا من الداخلية لاصدار مجلة ، وقبل منه التأمين ثم عادت وزارة الداخلية فرفضت منحه الترخيص(٢) ٠

ومن ثم فقد كان السبيل الوحيد هو استئجار رخصة جريدة ٠

---

(١) الحساب ١٨ـ٥ـ١٩٢٥ ٠

(٢) لحساب ١٠ـ٤ـ١٩٢٥ ٠

وهكذا استأجر رفيق جبور رخصة جريدة الحساب من صاحبها ابراهيم الصيحي ٠ وشخصية « الصيحي » غير معروفة ، لكننا يمكن أن نتلمسها من الاعداد التي أصدرها بنفسه من جريدته قبل أن يؤجرها للحزب ٠٠ فشعار الجريدة كان الآية القرآنية « ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ثم « الحساب صحيفة يومية سياسية ، تعني بنوع أخص بالشؤون الداخلية ، وفي صدر الصفحة الاولى من العدد الاول صورة الملك فؤاد وتحتها « جلالة مليكنا المفدى فؤاد الاول » ثم تنبيه بأن « المكاتبات ترسل الى ابراهيم الصيحي ـ صاحب ومدير جريدة الحساب ـ الادارة مؤقتا بدرب الجماميز نمرة ١٥ »٠

ومن الواضح أن ابراهيم الصيحي قد فشل في مواصلة اصدار جريدة يومية ، ذلك أنه أصدرها أسبوعية ، ثم توقفت الحساب عن الصدور بعد العدد العاشر الصادر في ٢٣ ديسمبر ١٩٢٤ ، حتى عاودت صدورها على يد رفيق جبور في ٦ مارس ١٩٢٥ ٠٠

كذلك فانه من الراجح أن علاقة الحزب بالحساب لم تبدأ في هذا التاريخ لان مراجعة الاعداد العشرة التي أصدرها الصيحي توحي بأن الحزب ورفيق جبور بالذات ، كان يمارس نوعا من العلاقة مع الجريدة قبل أن يتولى جبور مسؤوليتها بشكل كامل ومباشر ٠٠

فمنذ العدد الرابع من الترقيم الاصلي ، وهو العدد الذي أصدره ابراهيم الصيحي في ١١ نوفمبر ١٩٢٤ ، يمكننا أن نلاحظ بسهولة بصمات صحفي قدير مثل رفيق جبور ، كذلك فاننا نتلمس بشكل واضح اتجاهاته السياسية ٠

ولسوف نشير ـ فيما بعد ـ الى مقالات ثلاث نعتقد أن كاتبها هو رفيق جبور الاولى بعنوان « ما يشغلنا » وقد نشرت

في العدد ٤(الترقيم الاصلي) ١١ نوفمبر عام١٩٢٤ ، والثانية بعنوان « الاحزاب والشقاق » (العــــدد ٩ الصادر في ١٦ ديسمبر ١٩٢٤) ، أما الثالثة فبعنوان « السياسة اليوم – مسؤولية الوزراء – يوم البرلمان » (العدد ١٠ الصادر في ٢٣ ديسمبر ١٩٢٤) ٠٠ وهو آخر عدد صدر تحت مسؤوليـــة ابراهيم الصيحي ثم توقفت المجلة بعد ذلك ٠٠ ليصدر العدد رقم ١١ في ٦ مارس ١٩٢٥ تحت الاشراف الكامـــل لرفيق جبـــور ٠

وقد غير جبور من قطع المجلة فجعله « كوارتر » كما غير شعارها الى « الحساب صحيفة سياسية اجتماعيـــة ، اقتصادية ، يومية ، تصدر مؤقتا مرة في الاسبوع – للدفاع عن حقوق العمال والفلاحين »٠

وظل اسم ابراهيم الصيحي باعتباره « مدير سياسة الجريدة المسؤول » ٠٠ وقد يبدو ذلك غريبا لكن الحقيقة تتكشف عندما نقلب صفحات الحساب فنجد أن رفيق جبور قد طلب من الداخلية الاذن بتولي رئاسة تحرير الحساب لكن الداخلية رفضت ومن ثم فقد كان من الضروري ابقـاء اسم « الصيحي » حيث لا تستطيع الصحيفة الصدور بـدون اسم رئيس تحرير مسؤول ٠ وحول هذا الموضوع تقـول الحساب « لم يصدر هذا العدد والعدد الماضي في موعدهما ، نظرا لما لاقيناه ونلقاه من رجال الادارة من المعاكسة فقــد رفض قلم المطبوعات اعطاء مدير هذه الجريدة رخصة لاصدار جريدته الخاصة بعد أن كان قد سمح له بذلك ، وقبل منه التأمين المعتاد ٠٠ ثم حرم قلم المطبوعات على مدير هـــذه الجريدة وضع اسمه عليها ، مع أنه أقل ما يقال فيه أنه مثل كثيرين من الذين سمح لهم باصـدار الصحف أو بوضـع أسمائهم على ما يشاؤون منها »(١) ٠

(١) الحساب ١٠-٤-١٩٢٥ ٠

ومع ذلك فان رفيق جبور يتحدى ٠٠ ويتولى مسؤولية المجلة ٠٠ وفي الوقت الذي يبقى فيه اسم « ابراهيم الصيحي » شكلا – على الصفحة الاولى – كمدير لسياسة المجلة ٠٠ فان المجلة تعلن التنبيه التالي في صدر الصفحة الثانية من العدد ١٣ (الترقيم الاصلي) « من الادارة الى القراء : ترجو ادارة جريدة الحساب حضرات القراء والمكاتبين ، وكل من له علاقة معها مخاطبة حضرة رفيق جبور (ادارة جريدة الحساب بشارع الدواوين رقم ٤٤) في كل شأن من شؤون الجريدة ٠ وجميع المراسلات يجب أن تكون باسمه لا باسم آخر »

ويتكرر هذا التنبيه في هامش الصفحة الثامنة من نفس العدد « جميع المراسلات يجب أن تكون باسم رفيق جبور ، بادارة جريدة الحساب بشارع الدواوين رقم ٤٤ القاهرة » ٠

ويبدو أن ثمة مشكلة معقدة قد اعترضت اصدار العدد الاول من المجلة (تحت اشراف رفيق جبور) أي العدد (١١ بالترقيم الاصلي) فقد صدر العدد متأخرا ٣٦ ساعة عن موعده المحدد ، كذلك لم تكن هناك مواد كافية أو بالدقـــة حذفت منه مواد كثيرة ولم يكن هناك وقت كاف لكتابة غيرها فلم يجدوا حلا سوى طبع العدد كله ببنط ٢٤ وهو بنط كبير بهدف شغل مساحة الصفحات بأقل عدد ممكن من المقالات ٠ وفي اعتقادنا ان السبب في ذلك قد يكون ابراهيم الصيحي الذي يظل مسؤولا من الناحية القانونية عن كل ما يصدر بالمجلة طالما يضع اسمه عليها كمسؤول عن تحريرها قد اعترض في آخر لحظة على بعض المقالات ٠٠ وعلى أية حال فان الحساب قد اعتذرت لقرائها على الوجه التـــالي « تصدر جريدتنــا الحساب صباح يوم الجمعة من كل أسبوع ، وقد تأخر صدور هذا العدد الى مساء السبت لاسباب قاهرة ٠ وقد اضطررنا كذلك الى حذف بعض المواد منه ٠ وصف أحرفه بحجم ٢٤

وهو حجم كبير سنبدله بأصغر منه كلما اتسع معنا المجال في المستقبل ·

وسبب هذه المسائل التي ما كنا نود أن تحدث هو اصدارنا هذا العدد على عجل ، اذ لم يتفق على اصداره الا مساء يوم الخميس ، فلم نشأ أن نؤخره الى يوم الجمعة المقبل ، وسيرى القراء التحسين باديا بوضوح في جريدتهم في كل عدد من الاعداد المقبلة – الادارة »(١) ·

ومع صدور العدد الاول بدأت مضايقات البوليس ·· « وبعدما طبعنا العدد قامت مشكلة أخرى حول السماح بطبع الحساب · وبينما كنا نطبع العدد الثاني صادره البوليس وهو على الطابع ونقل أعداده الى القسم حيث حجز ثلاثة أيام ثم سلم لمدير الحساب ومعظم الاعداد مقطعة فكانت الخسارة مزدوجة · فعسى أن وزارة الداخلية وما يتبعها من الادارات تكف عن معاكستنا وتلتفت الى سوانا لحظة نتمكن في أثنائها من التنفس بحرية »(٢) ·

وهكذا فقدنا العدد الثاني فلم نجد أي نسخة منه ، أما العدد الثالث (١٣ بالترقيم الاصلي) فيبدو أن صدوره قد تعثر طويلا لانه لم يصدر الا في ١٠ ابريل بينما كان الموعد المفترض لصدوره ٢٠ مارس · لكن المجلة انتظم صدورها بعد ذلك ·

ولم تكف وزارة الداخلية مطلقا عن مطاردة « الحساب » ولا حتى للحظة واحدة تتمكن في أثنائها من التنفس بحرية ·· كما كان يتمنى محررها ·· ومع ذلك واصلت الحساب

---

(١) الحساب ٦-٣-١٩٢٥ ·
(٢) الحساب ١٠-٤-١٩٢٥ ·

المسيرة ·· تقاوم كي تصدر ، وتصدر كي تقاوم ·

***

ولنحاول الآن أن نتابع كيف واصلت الحساب مسيرتها فوق الشوك ··

ولنبدأ بالمقالات الثلاث التي نعتقد أن كاتبها هو رفيق جبور والتي نشرت في الاعداد السابقة على تولي جبور رئاسة تحرير الحساب ·· ونعتقد أن هذه المقالات تنسجم تماما مع موقف الحزب تجاه قضية عامة هي الموقف من حزب الوفد ·

والمقال الاول « ما يشغلنا « كتب قبيل استقالة سعد على اثر مقتل السردار وجاء فيه « ماأنت المعارضة عندنا للبحث عن الشؤون الخارجية وتصوير ضعف سعد في محادثاته مع بريطانيا ، بعد أن أعلن دولته الرجوع لنظرية استقلال مصر في عقر مصر (التي هي نظريتنا) فعلت الاصوات واشتدت الضوضاء من أجل اهمال السياسة الخارجية موقتا ·· نحن لا نلوم معارضا على معارضته فللجميع آراؤهم · ونحن نطرب للمعارضة في حدود المصلحة البريئة ، ونحميها ما دامت شريفة لا يدنسها غرض ولا يشوبها سوء النية » ·

لكن المقال لا يكتفي بتأييد سعد بل هو ينتقده أيضا ·· بل هو يلمح الى خطأ سعد في توجيهه الضربات للحزب فيقول « ولقد عارضنا سعدا في تصرفاته يوم أن افتتح جهاده في داخلية البلاد بما افتتحه · وقلنا له خير من هذا أن تلئم شمل قومك ، وتعرف متى يومك ، وعارضنا الوفد على سكوته أمام حوادث السودان ، والتزامه الصمت ، فليس الصمت في مثل هذه الظروف لغة الامة » ·

•• ويمضي المقال « عارضنا وما زلنا نعارض في كل عمل لا يتفق مع المصلحة التي عاهدنا النفس على احترامها والفناء فيها • ولكنا لا نرى من المصلحة أن نقابل سعد بالفاظ السخرية والتشفي على مسمع من العدو الرابض في منزلك مما يضر بقضيتنا •• وذلك ما يريده أعداؤنا »(١) •

وهكذا فان أسابيع قليلة لم تكن قد مضت على الاحكام القاسية التي أصدرتها محكمة جنايات الاسكندرية ضد قادة الحزب ، ومع ذلك فان جبور كان قادرا أن ينتهج سياسة موضوعية تماما تجاه الوفد وزعيمه •

ويستقيل سعد •• وتبدأ معارك كلامية حامية على صفحات الجرائد ، بينما يواصل الانجليز انتهاكهم الصارخ لاستقلال مصر •• ويدعو الحزب الى نبذ الخلافات والى توحيد الصفوف الوطنية كلها ضد الاستعمار ، لكن الدعوة الموحدة تأتي من باب النقد المر والعنيف والتهكم الصارخ على المتاجرة بالكلمات •• وتحت عنوان « الاحزاب والشقاق » كتبت الحساب تقول « لا نعرف ولا المنجم يعرف ما هي مهمة الاحزاب في مصر ! ولا الى أية ناحية يقصد أعضاؤها ! انها لحيرة كبيرة •• نعرف مصر كثيرة الجمعيات ، كثيرة الهيئات ، ثم نستعرض برامج أحزاب مصر فنجد العجب العجاب ! نجد كل هيئة فتشت في حال البلد تفتيشا دقيقا فعرفت مواضع الضعف فيها وجعلت اصلاحها أول مقاصدها وصدر برنامجها !! الا أننا مع الاسف نبحث عن العمل ونتحدث عن التنفيذ فلا نجد له أثرا ولا خبرا ، كأنما تلك البرامج انما جعلت أحابيل وشباك لكسب الجمهور » •

(١) الحساب ١١-١١-١٩٢٤ •

وختام المقال « والآن فقد خسرنا كل شيء تقريبا ، ولم يبق أمامنا غير خيط من خيوط الرجاء ، وهو خيط ايمان الشعب بحقوقه وتقديسه لبلاده ، ولا يزال زعماء الاحزاب ولا تزال صحف الاحزاب تشن الغارات بعضها على بعض ويكدح كتابها ويجهدون قراءهم في التباري في السب والشتم والنقد البارد ، وكل واحد يتكلم باسم الامة ، ويدعي المحافظة على حقوق الامة ، وأغرب من كل هذا أن يكون هذا لسان حال الصحف في الوقت الذي يدعو فيه بعض أعضاء الاحزاب للاتحاد »(١) •

والحقيقة أن الموقف تجاه حزب الوفد كان بالغ التعقيد، بل كان يتعين عليه أن يكون كذلك ، فسعد زعيم وطني ما في ذلك شك ، وكان يتعرض لهجمات الاحتلال والسراي وأعوان الاحتلال والسراي ، لكن للوفد ولسعد أخطاء كثيرة – من وجهة نظر الحزب على الاقل – وهكذا كتب رفيق جبور قائلا •• « لم يخطر ببالنا أن نعيد على أذهان النواب حديث مسؤولية الوزراء ، وان نطالبهم بعقد محكمة لمحاسبة من ضحوا بمصلحة الامة في عهد دستورها ، وفي عهد أول نواب دستوريين من أبنائها ، لم نشأ ذلك ، ولم نشأ أن نثير حديثه، لان مصر كما قدمنا عجيبة في تكوينها ونظامها •• فحديث مسؤولية الوزراء الذي كان يلذ للنواب أن يسمعوه في ابان عهد وزارة زغلول باشا ، أصبح اليوم ممقوتا عندنا ، وثقيلا على الآذان عندهم ، ثقيل على الآذان لان المسؤولية القضائية ، ولان المحاكمة النيابية اذا وجدت بالفعل فلا بد أن تتناول سعدا كغيره بتهمة التقصير في الواجب الوطني المقدس ، لانه كغيره

(١) الحساب ١٦-١٢-١٩٢٤ •

لم يسلم من التقصير »[1] ·

وفي نفس الوقت تنشر « الحساب » تعليقا قصيرا لرفيق جبور بعنوان « هنيئا للورد يقول « قامت اليوم حرب بين صحف الوفد وصحف المعارضة حول الزيارات الخفية التي كثر التحدث عنها اليوم ، فصحف المعارضة تقول أن الوفد أرسل رسله خفية لترضية اللورد اللنبي ، على أن يعود الوفد للحكم بشرط أن يسلم البضاعة ، وصحف الوفد تقول أن الدستوريين والوطنيين هم الذين تحالفوا على تسليم البضاعة نكاية في الوفد وسواء صحت الدعوى الاولى أو الثانية فالبضاعة مسلمة لا محالة ، ولهذا فلا نجد من نهنئه بذلك غير فخامة اللورد »[2] ·

لكننا بذلك نظلم الرجل ظلما فادحا اذ نجتزىء كلماته فرفيق جبور لم يكن مجرد صحفي يكتب في السياسة ، لكننا نجرؤ على القول بأنه كان واحدا من أكثر المفكرين الماركسيين العرب ـ في ذلك الحين ـ عمقا واصالة ·· بل لعله رائد في ميدان البحث النظري حول دور الحزب والنقابة والتحليل الطبقي للمجتمع المصري وغيرها من الموضوعات التي تتطلب تمرسا خاصا وأصيلا في النظرية الماركسية ·

·· ولهذا نعتقد أن من حق رفيق جبور ، ومن واجبنا عليه وهو الذي حاول المؤرخون البرجوازيون طمس تاريخه كله أن نقدمه لاجيال الماركسيين الجدد كمفكر ماركسي أصيل ··

هل نجرؤ فنقول هذه الكلمة ؟ لست أريد أن أقول حكما

---

(١) الحساب ٢٣ـ١٢ـ١٩٢٤ ·

(٢) المرجع السابق ·

قاطعا قبل أن أقدم للقارىء مقالين ·· من أهم مقالاته ·· ولانهما مقالان بالغا الاهمية ولانهما ليسا مجرد استعراض آراء رجل ، أو عضلات كاتب يظهر شجاعته لانها نظرية متكاملة عن العمل الثوري في مصر ، نظرة ماركسية متكاملة عن مصر وأوضاعها الطبقية ·· كان حتما أن نوردها بنصها·

رفيق جبور

أ .. عن الوضع الطبقي في مصر [*]

لاجل الطبقة العاملة من فلاحين وعمال أنشأنا هـــذه الصحيفة لاجل اسماع السلطات الحاكمة وباقي الطبقـــات في مصر صوت هذه الطبقة البائسة المظلومة أقدمنا على هذا العمل الشاق الذي طالما عجلت النفس الى خوض أمواجـــه المتلاطمة فصدتها العقبات والموانع فأقدمت تارة بضع خطوات الى الامام ـ وتراجعت طورا الى الوراء بضع خطوات حتى وصلت أخيرا الى ما ترى أنها انتدبت في هذه الحياة للقيام به ـ عمل انساني لا شك في نفعه وأهميته وهو رفع « صوت العمال » عاليا لتسمعه الطبقات الاخرى والسلطات الحاكمة فتصغي اليه ، وتعمل على ازالة ما يردد من شكاوى وعلـــى اجابة ما يلحف في نيله من مطالب عادلة ، أن الطبقة العاملة في مصر هي أكثر الطبقات عددا وبؤسا وشقاء ٠ وأقلها نصيبا من اعتناء الحكومة بها والعمل على رفع مستواها وازالـــة

---

* نشر هذا البحث كافتتاحية للعدد الاول (العدد ١١ بالترقيـــم الاصلي) من مجلة الحساب الصادر في ٦ـ٣ـ١٩٢٥ ٠

المظالم عنها وهذه الطبقة ليست مثل زميلاتها في باقي البلاد حيث يبلغ عدد أفرادها ربع أو ثلثأو نصف مجموع السكان٠ بل هي بخلاف ذلك تزيد على ٩٠ في المائة من مجموع أفـــراد الامة المصرية وقد قدرها بعض الاحصائيين بخمسة وتسعين في المائة من مجموع سكان القطر المصري ذلك أن سكان الارياف كلهم فلاحون لا يملك الواحد منهم أكثر من خمسة أفدنة وقد لا يملك بعضهم جزءا من الفدان الواحد عدا أفراد قليلين يعدون على أصابع اليد الواحدة في بعض البلدان يملك كل منهم ألف فدان أو أكثر ٠

وكذلك الحال في المدن اذ بينما نرى فردا واحدا يملك الدور ، والقصور نرى بجانبه ألوفا من العمال البائسين أو من البهل العاطلين عن العمل يتسكع الواحد منهم في الطرقات طول النهار يفتش عن عمل يقتات مع أهله بأجره الزهيد فلا يجد حتى اذا غربت الشمس يأوي الى ركن من أركان الشارع أو عطفة من عطفات الازقـــة ليرتمي بجسمه المنهوك عـــلى الرصيف وينام بضع ساعات ترشه الغبراء ولحافه السماء فيحول رجال الامن العـــام دون بغيتـــه ويزجره الشرطي (البوليس) اذا ما وطأته قدماه فيفر من أمامه الى مكمن آخر حيث ينتظره الخفير بهراوته الضخمة ملوحا له بها في وجهه فيهرب من أمامه هروب الجنيه من لقيا العامل في مصر وهكذا يظل المسكين طول ليله كلما تغلب عليه النعاس في ناحيـــة وأسند رأسه الى يده وحاول أن ينام مفترشا الارض ملتحفـا الهواء يطرده أحد رجالالحكومة الىناحية أخرى حتىيفاجئه النهار وتتقاذفه أرجل المارة فيصحوا مبكرا بكور الزاجر الى بؤس وشقاء الايام السالفة ٠

وهكذا نرى أن الفرق بين طبقات الشعب المصري كبير جدا وبين وظاهر واضح ٠ فمن فلاح مسكين يملك من الارض

لا شيء ويعمل في أرض سواه بما لا يسد له رمقا ولا يقيه من جوع أو برد الى مالك غني يحوز ألف فدان أو أكثر ، من فلاح فقير يملك بعض الفدان أو فدانا أو اثنين أو ثلاثة على الاكثر الى ثري من كبار المالكين قد تتجاوز الفدادين التي يملكها الالاف أو أزيد ٠ ومن ابن فلاح يعمل طول يومه في الحقل لقاء قرشين أو قرش ونصف القرش في الايامالعادية ولقاء خمسة قروش في أيام موسم القطن الى موسر غني يصرف بلا حساب ويرمي الجنيهات كيفما اتفق ٠٠٠ ومن عامل اما يشتغل لحسابه فيعمل يوم ويعيش بلا عمل نعدة أيام مكرها فلا يزيد أجره اليومي عن سبعة قروش أو أربعة قروش تعديلا في كل شهر من أشهر السنة أو يشتغل في شركة من الشركات الاجنبية بريال كل يوم يخصم نصفه أو أكثر من نصفه ما بين جزاءات وغرامات واجازات اجبارية وغلطات حسابية وألف ضريبة أخرى من عامل هذا شأنه الى صاحب عمل لو طحن الذهب وعجنه بدل الدقيق وأكله خبزا ابريزا لما تمكن أن يأكل هو وآله واقاربه وخدمه وحشمه ورفيقاته وسراريه عشر دخله اليومي ٠

وبين هذه الطبقة وتلك طبقة أخرى قليلة العدد تنقسم الى قسمين ، الموظفون وأصحاب المهن الحرة ٠٠٠أماالموظفون فالكبير منهم هو من أبناء الفئة التيوصفناها والموظف الصغير أما ابن سري سيصبح عما قريب موظفا كبيرا ينتقل الى هذه الطبقة واما ابن رجل متوسط الحال فقد كتب له الشقاء والمسكنة والبقاء في الدرجات السفلى من درجات التوظف عدا نفرا قليلا جدا والشاذ لا يعتد به فهو والحالة هذه يكون فردا من أفراد الطبقة المتوسطة وهي الطبقة القليلة العدد على ما قلنا ٠

وأصحاب المهن الحرة على درجات فالمحامون والاطباء

والمهندسون والصحفيون ٠٠ الخ كثير الدخل منهم حكمه حكم أخيه الموظف الكبير وفقيرهم يضم الى الطبقة الوسطى فلا يزيد في عددها القليللقلة عدده وأرباب الصناعات الصغيرة وهؤلاء منهم الغني والفقير أيضا فالغني من طبقة الاغنياء والفقير من الطبقة الوسطى لان غناه نسبي أيضا فلا هو بالعامل البائس ولا بصاحب العمل ذو المال الوفير ٠

فالطبقة العاملة في مصر هي أكثر الطبقات عددا على ما أبنا وأكثرها شقاء أيضا على ما قلنا والفرق بينها وبين الطبقة الغنية كبير جدا كما سبق القول اذ الفقير فقير مدقع قد يعمل في اليوم بقرشين اثنين والغني غني كبير يملك من الاراضي ألوف الافدنة ومن الدور والقصور ما قد لا يعرف هو عددها أما الطبقة الوسطى فعددها قليل جدا في القطر فلا يؤثر انحيازها الى فريق دون فريق لضعفها وقلة عددها ولما رأينا أن الطبقة المصرية العاملة من فلاحين وعمال قد ضاعت حقوقها وغلبت على أمرها فلا نصير لها ولا مدافع ورأينا أنها قد استيقظت من سباتها الطويل الذي دام أجيال ٠ وهبت تطالب بحقوقها وبنصيبها في الحياة فانضم أبناء الطبقة الواحدة من العمال الى نقابة وانضمت عدة نقابات الى اتحاد وألف بعض العمال هيئات وجمعيات تعاون وأنشأت لهم مدارس ليلية وصناديق توفير ٠٠ الخ ورأينا أن حركتهم غير منتظمة التنظيم الكافي رغم الجهود الكبيرة التي يبذلها منظموهم وأصحاب النفوذ بينهم ورأينا أن لا صلة تجمع شملهم وتوحد آرائهم وأفكارهم وتبث فيهم روح التضامن وتحذرهم من التفرقة والتشاحن وتكون لسان حالهم وخير معبر عن جماعاتهم وأحسن مدرسة تلقنهم اختبارات العمل كما في أوروبا وأمريكا مما آل الى تحسين أحوالهم ــ لما رأينا ذلك كله وكنا ممن اندمج في حركة العمال

منذ تجدد نهضتهم الى الآن وجاهدنا معهم ومشينا واياهم درجة درجة فاختبرناهم واختبرونا فقد عزمنا على اصدار هذه الصحيفة السياسية الاقتصادية كل أسبوع مؤقتا — لتسد الفراغ الذي أشرنا اليه ولتكن للعامل خير مرشد وخير سمير • ستخصص جريدتنا هذه لمجرد خدمة للعمال لتكون (صوت العمال) فلا يسمع من على صفحاتها صوت آخر ولا تخدم هيئة غير هيئاتهم ولا شخصا غير أشخاصهم وأشخاص الذين يعطفون عليهم ويسعون في منفعتهم وفي سبيل وصولهم الى حقوقهم •

ولا نكثر في هذا الموقف من الوعود والعهود شأن أبناء الطبقات الاخرى الذين يقولون كثيرا ويعملون قليلا أو لا يعملون أبدا بل أننا نشرح خطة وبرنامج عملنا باختصار وعلى طريقة العمال القول على قدر العمل أو القول القليل مع العمل الكثير وقد رأى من عرفونا فيما مضى من العمال وسيرى من لم يعرفونا بعد أننا من الذين يخلصون في العمل ويفضلون أن تتكلم أعمالهم عنهم لا أن تتكلم عنهم أقلامهم وألسنتهم •

(ب) عن الحزب*

رسالة من محمد صديق عنتر **

« حضرة المحترم رئيس تحرير جريدة العمال والفلاحين الغراء ، كنت قد قرأت في أيام الانتخابات في احدى الجرائد الكبرى أن البوليس ضبط منشورا انتخابيا كانت تطبعه « لجنة الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين » في احدى مطابع العاصمة وأظنها مطبعة الدواوين اذا كانت الذاكرة لم تخني ثم لم نعد نسمع شيئا لاعن ذلك المنشور الذي يحتوى بلا شك على خلاصة مطالب الطبقة العاملة ولا عن تلك اللجنة

---

* الحساب ١ـ٥ـ١٩٢٥ •

** اتهمت النيابة رفيق جبور بانه محرر هذه الرسالة ، وأنه افتعلها كي يتيح لنفسه فرصة الرد عليها متحدثا عن ضرورة تأسيس حزب للعمال والفلاحين وقد اتهمته النيابة ايضا بانه قد «ترجم كتابا في الشيوعية ووقعه باسم محمد عنتر المصري — الاهرام ١٧ـ٦ـ١٩٢٥ نقلا عن تحقيقات النيابة العامة •

التي أتذكر أن حضرة « رفيق جبور » المشرف على جريدة الحساب والمعروف بمدافعته عن الطبقة العاملة كان رئيسها أو سكرتيرها كما كتبت الصحف فهل ماتت هذه اللجنة قبل أن ترى النور ويعرفها الناس مثل كثير من المشاريع الوطنية المفيدة وهل قضي على محتويات المنشور قبل أن تطلع عليه الطبقة العاملة التي وضع المنشور لمصلحتها ؟ أم أن الحكومة رأت أن المطالب التي وردت فيه غير قانونية فحرمت نشرها؟

واني يحق لي أن أتساءل بحق باعتبار أني رجل قد خصصت نفسي وحياتي للطبقة العاملة المظلومة التي أنا من أفرادها لماذا لا تبذلون جهودكم في سبيل انشاء حزب للطبقة العاملة مع أن جميع الوسائل منوفرة لديكم من وجود جريدة تحت تصرفكم وجموع كبيرة من العمال تثق بكم ثقة لا حد لها على ما أعلم . لما لا تدعون المفكرين من الطبقة العاملة الى انشاء حزب عمال يدافع عن حق الطبقة العاملة المهضوم ويجاهد في سبيل تحسين حالتها .

اني أقدر الجهود التي تبذلها جريدة الحساب في سبيل الطبقة العاملة ولكن عملها سيبقى ناقصا وغير مثمر ما دام لا يوجد حزب عمال يتدرج ويقوى مع الزمن ويستلم بيديه الحديديتين حقوق ومطالب العمال فما قولكم دام فضلكم..

المخلص

محمد صديق عنتر

وردا على هذه الرسالة نشر رفيق جبور البحث التالي ..

تأسيس حزب للطبقة العاملة من عمال وفلاحين *

« ان أهم موضوع عالجناه حتى الآن وقد يكون أهم موضوع نعالجه في المستقبل هو موضوع ذلك الاقتراح الذي أرسله الينا « محمد صديق عنتر » ونشرناه في صدر رسائل العمال والفلاحين . من العدد السابق – عن تأسيس حزب للطبقة العاملة في مصر من عمال وفلاحين . وقد لا نعرف وصفا ينطبق على أعمالنا أكثر من قوله لنا « ان جهودنا ستبقى ناقصة وغير مثمرة ما دام لا يوجد حزب يتدرج ويقوى مع الزمن ويستلم بيديه الحديديتين حقوق ومطالب العمال » .

على أنا لم نجهل هذا الامر من قبل ولا أهملناه فقد فكرنا فيه بدليل تساؤل حضرته عما جرى للجنة الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين التي ما أردنا منها الا أن تكون نواة للحزب الذي يقترح هو تأسيسه .

أما لجنة الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين فقد كانت مؤلفة من بعض الاشخاص الغيورين الذين يهتمون بشأن الطبقة العاملة وكانت قد عزمت على خوض المعركة الانتخابية بكل قواها الا أنها ما باشرت اصدار منشورها الاول الذي ننشر منه في مكان آخر من هذا العدد المطالب التي وضعتها اللجنة لتكون برنامجا لمرشحي العمال حتى بادرت الجهات الادارية الى ضبطه ومنع طبعه وانتشاره والتحقيق مع المسؤول عن اللجنة مما اضطر أعضاءها الى السكوت حتى تظهر نتيجة التحقيق وفي أثناء ذلك انتهت المعركة الانتخابية

---

* الحساب ٨-٥-١٩٢٥ .

وتم للحكومة ما أرادت من الحيلولة دون انتشار حركة عمال كانت بلا ريب مفيدة لهم على أن أعضاء اللجنة لا يزالون متمسكين بمبادئهم وعند حسن ظن الطبقة العاملة بهم ولكن الظروف ألجأتهم الى استعداد تام للعودة الى الجهاد ٠

أما اقتراح محمد صديق عنتر فأوسع وأبعد مدى من مجرد تأليف لجنة للدفاع عن حقوق الطبقة العاملة فهو يرمي الى تأسيس حزب سياسي منظم يسعى لتحسين حالة تلك الطبقة وتحقيق كل مطالبها ٠ ومما يسرنا كثيرا أنه دل على يقظة عمال مصر النبهاء ان ذلك الاقتراح ما كاد ينشر وما كدنا نعلن فتح باب المناقشة فيه ونرجو جميع قراءها أن يبدوا آرائهم على صفحات جريدتهم « الحساب » حتى انهالت علينا الرسائل من كل جانب كما يرى القارىء مما نشرناه في هذا العدد ومما سننشره في الاعداد القادمة ٠

ولكي نتمكن من درس هذه المسألة الخطيرة مسألة تأسيس حزب عمال درسا وافيا علينا أن نتمعن في موقف مصر الآن من كافة وجوهه وأن ننظر الى الحالة الحاضرة من جميع نواحيها عندئذ يمكننا أن نجيب على هذا الاقتراح المهم اجابة مدعمة بالبرهان والدليل ٠ هل الوقت مناسب الآن لتأسيس حزب للطبقة العاملة في مصر ؟ ثم ممن يجب أن يتألف هذا الحزب ؟

ما هي مراميه وأغراضه ومبادئه وما يجب أن يكون برنامجه ؟ ثلاثة أسئلة مهمة تتعلق على الاجابة عليها مسألة وجوب أو عدم وجوب تأسيس حزب الآن وكيف وممن يؤسس وأي برنامج يعتنق ؟

فلنحلل هذه الاسئلة الثلاثة ولندرسها بامعان ولنشرحها تشريحا دقيقا ٠ لا يخفى أن الاستعمار يقوى شيئا فشيئا الآن ، لا في مصر بل في جميع العالم واقدام المستعمرين

أكثر رسوخا في مستعمراتهم اليوم مما كانت عليه في أي وقت مضى بعد الحرب العظمى وذلك لان الحرب التي نبهت الضمائر الى مطالب سياسية واجتماعية كانت الطبقة العاملة غافلة عنها وأيقظت طبقة طال سباتها أنتجت عقب انتهائها حركة فكرية عظمى وسلسلة ثورات واضطرابات ومظاهرات واعتصابات لم ينس القارىء بعد أمرها ٠ وقد عمت تلك الحركة جميع أفراد الطبقة العاملة في كل البلدان وجميع شعوب المستعمرات على الاطلاق ٠

فالاستعمار هوجم بعد الحرب من كل ناحية وكان مهاجموه أبناء الطبقة العاملة في نفس البلدان المستعمرة (بكسر الميم) وأبناء جميع شعوب البلدان المستعمرة (بفتح الميم) فاهتزت أركان الاستعمار وتزعزع بنيانه وكاد يسقط الا أن هذه الحركة ما لبثت أن همدت في كل مكان وحصل رد فعل فأخذ الاستعمار يسترجع قواه ويعود الى صوابه الذي كان يفقده ولما تقوى بدأ يهاجم هو نفسه مهاجميه بالامس وأصبح مهاجموه في موقف الدفاع فالتقهقر ٠

ولكن الاستعمار الذي عاد الى النمو والنشاط لن يستمر متابعا نشاطه وسيقف نموه عما قريب ولا بد له من الاضمحلال ولهذا الاضمحلال عوامل لا بد أن تسبقه وتعمل عملها الذي يؤدي الى تفكك قوى الاستعمار والقضاء عليها وخلاص العالم منها ٠ ومن هذه العوامل الخلافات العظيمة التي تقوم من آن الى آن بين الدول الاستعمارية نفسها من جهة وجهاد الطبقة العاملة في الدول الاستعمارية من جهة أخرى ٠

وقد لعبت مصر دورها في كلتا الحالتين حالة الحركة الثورية وانهزام الاستعمار وحالة همود الحركة فانتصار الاستعمار وهي ستلعب دورها بلا شك في القضاء على الروح

الاستعمارية متى آن الاوان المناسب فمصر الآن ككل بلد مستعمر (بفتح الميم) تعاني شدة وطأته وترزح تحت عبء نيره الثقيل لا لان المستعمرين يضطهدونها ويستبدون في تصريف شؤونها فحسب ، بل لان زعماء الحركة الوطنية أنفسهم لم يحسنوا التصرف عندما هبت هذه الامة النشيطة مطالبة بحقوقها مدافعة عن استقلالها وحريتها فهم اغتنموا فرصة نهوضها ليضعوا أنفسهم في مقدمة الصفوف وعلى رأس القيادة ولكن أين الخطط التي وضعوها لاستمرار الجهاد والتقدم شيئا فشيئا في سبيل الغاية القصوى وهي الاستقلال التام . وأين هي المطالب المحددة تحديدا دقيقا والتي دعوا الشعب الى التمسك بها وجعلها ميثاقا وطنيا وعهدا مقدسا ؟ .. بل أين ما وعدوا به الفلاح الذي حمل عبء النهضة المصرية على كتفيه القويتين وأين وعودهم للعامل الذي قذف بنفسه في أتون ثورة سنة ١٩١٩ فالتهمته نيرانها؟ لم يفعلوا شيئا من ذلك .

ان الشعوب قد تنهض أحيانا للدفاع عن فكرة مبهجة ، وقد تندفع وراء الزعماء دون أن تسألهم عن تحديد مطالبهم وعن مقاصدهم ورغباتهم بعد فوزهم ولكن ذلك لا يدوم طويلا ولا تلبث تلك النهضة أن تخمد وذلك الاندفاع أن يقف ثم يعود القهقرى .

وهذا ما حدث في مصر تماما اذ بعد أن أرهب المصريون الانجليز عند نهوضهم وقيامهم للمطالبة بحقوقهم وأجبروهم على الاعتراف بها عادوا القهقرى فعادت انجلترا الى وضع يدها الحديدية على عنق مصر والى التحكم بها كما تريد وتشاء ولولا جبن الوفد المصري وخوفه ولولا معرفة الانجليز بجبنه وخوفه لما تجاسروا قط بل لما فكروا قط بامتهان حقوق مصر بعد ما وجفوا من عملها المدمر سنة ١٩١٩ ولما

أقدموا عليه من الاستهتار بالامة هذا الاستهتار الذي تعاني مرارته الآن . على أن عمل انجلترا لم يؤثر الا على الوفد المصري الذي كان في طليعة النهضة المصرية وأساء التصرف لكنها لم تتمكن من قتل روح الشعب الناهض ومن القضاء على الحركة الوطنية الباهرة لقد تمكنت من ضرب الوفد ضربة قد تكون القاضية أما قتل الروح الوطنية المصرية واما الحيلولة بين المصريين ومطالبهم فهما ما سيعجز عنه الانجليز .

وقد تقهقرت الحركة الوطنية منذ أن خرجت من يد الطبقة العاملة — من فلاحين وعمال وتسلمتها الطبقة الخاصة من الباشوات وأرباب الاموال والاراضي فكأن هؤلاء قد انضموا الى هذه الحركة بدافع مصلحتهم الخاصة فبعضهم خاف نجاحها وانتقام أربابها منه وبعضهم رأى الاندفاع فيها جرا لمغنم وطمعا في منصب وبعضهم انساق مع التيار غصبا عنه وبعضهم رأى الفرصة مناسبة لتسويد نفسه وجعله ذاته زعيما فاغتنم الفرصة وهلم جرا ولكن لم يكن لاي حزب ولا لاية هيئة أو جماعة غاية قصوى حصرت الجهود في سبيل الوصول اليها بل كان كل يعمل حسب الظروف . وهذا الحزب الوطني أكبر دليل على ما نقول فبعد أن كان الحزب الوحيد المتطرف في مصر وبعد أن كان أبعد الاحزاب مدى في مطالبه أقدم اليوم على الاتحاد مع العناصر الرجعية لمجرد هدم الوفد الذي هو أقرب الناس اليه في المبادىء من تلك العناصر ، ولمجرد الفوز في الانتخابات النيابية .

اذن فأحزاب مصر اليوم ليست سوى جماعات سياسية تعمل بدون غاية ولا مبدأ أو تسير حسب الظروف وتقلب الاحوال فتكون تارة متطرفة وتارة معتدلة وتتحد تارة مع العناصر الرجعية وتسكت حينا عن بعض مطالبها وتغالي

أحيانا في الطلب ولا هم لافرادها الا الحصول على الوظيفة والمنصب – وموقف مصر الآن من أسوأ المواقف اذا نظرنا اليه من وجهة الاحزاب واضطراب أفكار الامة وعدم وجود زعامة حقيقية في الشعب وهو موقف حسن لا بأس به متى علمنا أنه السبب في كشف القناع عن حقيقة الاحزاب وتضعضعها وظهور فساد تنظيمها وعدم وجود غايات ومبادىء لها . هذه هي الحالة في مصر الآن فهل الوقت مناسب الآن لتأليف حزب العمال ؟..

ان الطبقة العاملة من عمال وفلاحين لا يمكنها الانتظار الى ما شاء الله حتى يقضي حزب على آخر وينتصر الوطنيون الحقيقيون على الوطنيين المزيفين . ثم يتفرغ الظافرون للنظر في شؤونها واجابة مطالبها .

للطبقة العاملة مطالب معروفة محدودة وهي تريد الانضواء تحت راية الحزب الذي ينيلها مطالبها ويدافع عنها وقد عرفت أن لا فائدة ترجى لها من الاحزاب الحاضرة .

فيجب اذن أن تنشىء لنفسها حزبا خاصا بها .

وهنا علينا أن نلفت الانظار الى أن مثل هذا الحزب لن يكون مثل اتحاد النقابات العام فيخلط بين الهيئتين لمجرد كون كل منها مؤلف من العمال فاتحاد النقابات هيئة اقتصادية لها غايات ومطالب خاصة وحزب العمال هيئة سياسية لها غايات ومطالب خاصة أخرى بها .

فممن يجب أن يتألف هذا الحزب ؟

ما هي مراميه وأغراضه ؟

هذا ما سنتكلم عنه في العدد الآتي ..

تأسيس حزب للطبقة العاملة من عمال وفلاحين*

تكلمنا في المقال السابق عن حالة مصر اليوم واستعرضنا أحزابها وموقف كل حزب وحقيقة حالته ومراميه وأغراضه وشرحنا ببيان ووضوح مناسبة الوقت الحاضر لتأسيس حزب للطبقة العاملة في مصر وبينا أن الحركة الوطنية المصرية أنها تقهقرت من يوم أن خرجت من أيدي الفلاحين والعمال وأنه لن يهتم بمصالح تلك الطبقة الا حزب سياسي مؤلف من أبناء الطبقة العاملة نفسها ولا يكون له هم آخر سوى الدفاع عن حقوق العمال والسعي لاجابة جميع مطالبهم .

وقد قلنا أن الطبقة العاملة لا يمكنها الانتظار الى ما شاء الله فقد وعدت كثيرا وماطلتها الاحزاب والسلطات كثيرا ولكل أمر حد ونهاية فان لم تؤسس لها حزبا يقوى ويتدرج مع الوقت ويتسلم بيديه الحديديتين حقوق العمال فلن يرجى لها خير على أيدي الاحزاب الاخرى ولا بواسطة أبناء الطبقات الاخرى فلا يجثو على العود الا قشره ولا يحك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك .

والآن فلننتقل الى النقطة الثانية من نقط كلامنا الثلاث وهي ممن يجب أن يتألف هذا الحزب ؟

فلننظر بروية وتمعن الى طبقات الامة المصرية الآن ولنستعرض الهيئات بل الجماعات التي تتألف منها ولنحلل طبقاتها لنستخرج منها الطبقة التي يجب أن ينضم أفرادها بدافع المصلحة الى هيئة واحدة ويسيرون تحت لواء حزب واحد .

* الحساب ١٥–٥–١٩٢٥ .

مصر الآن في طور الانتقال من عهد الاقطاعات الى عهد الرأسمالية أي أن مصر التي عاشت الى وقت كبير جدا تسود عليها طبقة قليلة العدد من أصحاب الاراضي الواسعة سيادة تامة تشبه السيطرة في كل وجه من أوجهها فكان صاحب الارض يملك الارض ومن عليها ويتصرف بها وبهم كما يريد ويشاء لكن مصر ترى الآن تحول أصحاب الاطيان الى رأسماليين وأصحاب عمل وأرباب محال صناعية وتجارية ..

وهكذا ترى مصر منذ عشرات قليلة من السنين تضاؤل عدد وأهمية ونفوذ أصحاب الاقطاعيات وزوال الشيء الكثير من امتيازاتهم وسلطتهم فقد بدأ أصحاب الاقطاعيات منذ أقل من خمسين سنة يستغلون أموالهم لا بواسطة تكثير أراضيهم كما كانت حالتهم من قبل بل بواسطة الاعمال الاخرى وأهمها انضمامهم الى الشركات الاوروبية التي تستثمر أموالها في هذا القطر وهكذا يتحولون من اقطاعيين الى رأسماليين .

هذا من جهة ومن جهة أخرى فان صاحب الاراضي الواسعة والتفتيش بعد أن كان يؤجر تفتيشه الى الفلاحين قطعا صغيرة أو يؤجر بعض القطع الكبيرة منه الى عدة فلاحين دفعة واحدة أصبح اليوم وقد عدل عن ذلك واتبع طريقة أخرى هي استحضاره الالات الزراعية على نفقته واستئجاره الفلاحين بأجر معين ليستغل أراضيه بنفسه على حسابه مما يجعل عمله ذاك أقرب الى عمل صناعي منه الى عمل زراعي فما ان ترى في أرض السراي آلات بخارية يسيرها عمال مأجورون ، حتى يخال لك أنك في ورشة صناعية الا أن نتاج هذه الورشة غلال وحبوب لا بضائع ، وهذا من علامات تحول عهد الاقطاعيات الى عهد الرأسمالية وتحول الاقطاعيين الى رأسماليين .

وهكذا يتحول الفلاحون من مزارعين الى عمال لانهم يرون أن الافضل لهم العمل في تفتيش لقاء أجر معين ، من اقتناء او استئجار فدادين قليلة وتشغيلها على حسابهم ليستولي المرابي في آخر السنة على كل نتاجها ، لقاء فوائد دراهمه ثم يستولي النبيل عليها لمبلغ زهيد كانت مرهونة لديه لقاءه ، فاذا كان لا يوجد الى الآن في المدن طبقة عاملة كبرى ، فانه يوجد في الارياف طبقة عاملة تنمو وتكبر مع الوقت . وقد أصبح عددها الى الآن لا يستهان به .

نعم ليس عندنا الآن طبقة عمال متضامنة قائمة بنفسها، تفصلها الفواصل المميزة عن باقي طبقات الامة ، الا أنه ليس عندنا كذلك طبقة أصحاب عمل متضامنة وقائمة بنفسها ، اللهم الا طبقة كبار مساهمي ومديري الشركات الاجنبية الكبرى . وهي طبقة لا تزال صغيرة قليلة العدد ووجودها من جهة قد أوجد من جهة أخرى طبقة عمال صغرى وكلما نمت الطبقة الاولى وانتقل عدد من أغنياء الوطنيين اليها كلما نمت الثانية وتضخمت بمن ينضم اليها من العمال الذين تربطهم المصلحة الواحدة ومجابهة الخطر الواحد وهو اعتداء الطبقة الاولى على حقوق كل فرد من أفرادهم .

قلنا أنه لا يوجد في المدن الكبرى عدد كبير من العمال وتدل الاحصاءات على أن عمال المدن يتراوح عددهم من ٣٠٠ ألف الى ٣٥٠ ألف نفس عدا العمال الذين يشتغلون في الزراعة كما قلنا . ومعظم عمال المدن يشتغلون في النقل لان النقل قد تقدم في مصر تقدما كبيرا جدا في السنوات الاخيرة . وهناك ألوف العمال يشتغلون في السكك الحديدية وألوف في القطارات الكهربائية (الترام) وألوف في السيارات وألوف في القوارب وألوف غيرهم حوذية عربات ركوب وعربات نقل .. الخ .

وحزب العمـــال المصري السياسي يجب أن يتألف من مختلف طوائف عمال المدن ومن عمال الارياف الذين يشتغلون في الزراعة وتوابعها على أن تكون هاتان الطبقتان طبقتــا عمال المدن وعمال الارياف هما أساس وأركان وجــدران الحزب وبعد ذلك لا بأس من قبول بعض أبناء الطبقات الاخرى الذين لا يتنافى وجودهم مع الغاية التي أنشيء الحزب مـن أجلها كما سنبين فيما بعد .

معلوم أن في مصر عددا كبيرا من الناشئة الجديــدة المتعلمة وهي لا تجد أمامها عملا لها الا في وظائف الحكومـة لان الصناعة غير متقدمة في مصر حتى يستخدموها فيها ولان المعامل التجارية بيد الاجانب الذين لا يستخدمون الا أجانب مثلهم الا عددا صغيرا من الوطنيين الذين يقبلون في الوظائف الصغيرة التي لا يتحمل صاحبهـا أية مسؤوليـة في عمله والحكومة لا يمكنها أن تستخدم كل تلميذ يغادر المدرسة كما لا يخفى فهـذه النـاشئـة المتعلمـة متى كانت من أبناء غيـر الاغنيـاء تميل بطبيعتها وبدافع من مصلحتهـا نحو الطبقة العاملة أكثر مما تميل نحو أية طبقة أخرى .

ولذلك فيجب أن تندمج في حزب العمال وتكون من أشد أعضائه نشاطا وفائدة .

وعندنا طبقة الفـلاحين الفقراء وطبقـة الفلاحين المتوسطي الحالة من أصحـاب الاراضي الذين لا يملكون الا عددا قليلا من الافدنـة فهم مستثمرون (بفتح الميم) لان الواحـد منهم يزرع لغيره لا لنفسه ولانه لا يستولي على محصول أرضه بل هو ليس حر التصرف في ذلك المحصول يبيعه كما يشاء ومتى يشاء لان كبـار المزارعين ورجـال البورصة يتلاعبون بالاسعار ويضطرونه الى البيع كما يريدون وعندما يريدون ، كذلك المصارف ومعظمها أجنبية والمرابون

ومعظمهم أجانب أيضا يسلفون صاحب الارض ثم يضطرونه الى بيع حاصلاته في أيام محددة من قبلهـم قد لا تكون في مصلحته وقد تأتي في وقت هبوط الاسعار فهو والحالة هذه رقيق يعمل لسواه بدون فائدة تعود عليه ولهذا فكل أفـراد الفلاحين الفقراء يندمجون طبعا في حزب العمال وعدد كبير من طبقة الفلاحين المتوسطين الذين تكلمنا عنهم مضطر الى الاندماج فيه أيضا وان لم تكن مصلحته هي مصلحة طبقـة العمال الا أن عليه أن يختار بين الانحياز الى كبار المالكين من أصحاب الاطيان وتعضيدهم والاندماج في مسلكهم فيصبح عبدا لهم وذنبا لطبقتهم أو الانحياز الى العمال فيربح هو من تعضيديهم اياه ولا يكون مرؤوسا منهم على الاقل .

ثم أرباب الصناعات الصغيرة وأصحـاب المهن الذين يعملون بأنفسهم دون استخدام سواهم في أشغالهم وهـؤلاء يؤلفون طبقة لن تعيش طويلا لان تقدم الصناعة واستخدام الالات البخارية والكهربائية سيقضي عليها ويحول أربابها الى صناع مأجورين وهذه الطبقة وان كانت قد عاشت الى الآن في مصر على عكس الحالة في البلدان المتقدمة فذلك لوجود الاحتلال الاجنبي الذي يقاوم تقدم الصناعة فبقيت البـلاد محتاجة اليها لكن الصناعة يجب أن تتقدم رغم العقبـات القائمة في وجهها ويجب أن تتسع ان آجلا أو عاجلا وتقضي على كل صاحب صناعة يعمل بمفرده ، ومن مصلحة الطبقة العاملة أن يقضى على هذه الطبقة في أقرب وقت وذلك حتى لا تبقى أية صلة أو جسر (كوبري) بين الطبقة العـاملة وطبقة أصحاب العمل بل يصبح الفرق كبيرا وظاهرا وكل طبقة محددة تمام التحديد وبعيدة عن الاخرى بعدا كافيـا لتميز كل فرد من أفرادها فيكفي أن تنظر الى هذا الشخص أو تعرف ما هو عمله لتقول من أية طبقة هو اما الآن فـلا

يمكنك أن تحكم على أصحاب الصناعات الذين يشتغلون لحسابهم ان كانوا من هذه الطبقة أو تلك • أما متى قضي على تلك الطبقة التي بين بين فيصبح الفرق ظاهرا بين العمال وأصحاب العمل ، عمال من جهة وأصحاب عمل من جهة أخرى ولا صلة بينهم مع وجود فارق واضح بين الطبقتين • وأصحاب الصناعات الصغيرة هم الذين يدفعون معظم الضرائب في المدن كما هي حالة الفلاح في الارياف وذلك لان أصحاب محلات الصناعة الكبرى في المدن وكبار التجار من الاجانب هم ممتازون لا يدفعون ضرائب وان لم يكونوا من الاجانب فهم أيضا لا يدفعون الا ضرائب قليلة نسبيا فمعظم الضرائب من هذه الطبقة البائسة ولذلك فان من مصلحة هذه الطبقة أن تنضم الى حزب العمال لان مصيرها اليهم مع اعترافنا بأن مصلحتها ليست ذات مصلحة العمال فهم أشبه بطبقة الفلاحين المتوسطين الذين تكلمنا عنهم •

وهكذا نرى أن لدينا خمس طبقات من طبقات الامة أو بالاحرى خمس هيئات كبرى من هيئاتها يجب أن تندمج في حزب العمال وهذه هي حسب قربها اليه : طبقة العمال في المدن والارياف فطبقة الفلاحين الفقراء فطبقة الناشئة الجديدة التي يضطر أفرادها الى الاستخدام فطبقة أصحاب الصناعات الصغيرة فطبقة الفلاحين المتوسطي الحال •

الا أن العمود الفقري للحزب ودماغه المفكر وقلبه النابض يجب أن يكون من العمال وعلى قانون الحزب الاحتياط الشديد لعدم تمكين بعض أفراد الطبقات الاخرى التي تندمج في الحزب من السيطرة عليه والتلاعب بمصالحه بل يجب أن يكون الحزب حزب عمال للعمال ومن العمال أما من ينضم اليه من أبناء الطبقات القريبة جدا من الطبقة العاملة فيجب أن يبقى دائما تابعا للحزب الى حد ما لكن

على كل حال يجب أن تكون وتبقى السيطرة في الحزب للعمال وحدهم :

ما هي مرامي الحزب وأغراضه ؟•

ما هي مبادئه وما هو برنامجه ؟•

هذا ما سنتكلم عنه في العدد الآتي •

لكنه لم يكن هناك عدد آت ، فقد تكالبت قوى عديدة على مجلة « الحساب » ونظمت الفوى الرجعية والاستعمارية حملة مسعورة على الحزب •• ومنبره العلني •

فالاهرام تنقل « عن الديلي ميل » تلغرافا لمراسلها بالقاهرة قال فيه « حدثت ضجة عظيمة من جراء عصبة شيوعية كبيرة في مصر » •

وتنقل عن « الديلي كرونيكل » تلغرافا لمراسلها بالقاهرة قال فيه « قامت الدلائل على وجود مؤامرة بلشفية واسعة النطاق لتدبير ثورة شيوعية في مصر تكون جزءا من مشروع يرمي الى اثارة أفريقيا كلها في وجه الدول الاستعمارية »(١) •

وكان الاهرام قد نشر في اليوم السابق مقالا بعنوان تجدد الحركة الشيوعية في مصر وفلسطين أورد فيه تلغرافا لمراسله في لندن يقول « نشرت جريدة الديلي أكسبريس تلغرافا لمراسلها في القدس قال فيه : تبذل الشيوعية الدولية والجمعية التجارية الحمراء الدولية * مجهودات عظيمة

---

(١) الاهرام ٣-٢-١٩٢٥ •

* الجمعية التجارية الحمراء ترجمة حرفية خاطئة للعبارة الانجليزية Red Trad Union وصحتها «الحركة النقابية العمالية الحمراء» •

لتقويض أركان الحياة الاقتصادية والاجتماعية في فلسطين ··· وهم على اتصال وثيق بمصر بواسطة وكيل متنكر يتنقل باستمرار بين فلسطين ومصر »(1) ·

··· وأثمرت حملة الضغط والابتزاز التي نظمها الاحتلال الانجليزي في صورة برقيات من المراسلين الانجليز في القاهرة « تحذر من خطر البلشفية » وأصبح الجو مهيئا للضربة ·

« فبكر بوليس القاهرة والاسكندرية أمس حوالي الفجر بأمر النيابة العمومية ففتش في المدينتين في أحيائها المختلفة مساكن طائفة كبيرة من الاشخاص الوطنيين والاجانب المشتبه في انتمائهم الى الشيوعية ، وبعضهم كان سبق التحقيق معهم واعتقالهم في غضون السنة الماضية في قضية الشيوعية الكبرى المعروفة ثم أخلي سبيلهم ، واعتقل منهم نحو ١٥ شخصا في سجن الاستئناف في القاهرة · ونحو هذا العدد في سجن الحضرة في الاسكندرية »(2) ·

·· وكان رفيق جبور بين المقبوض عليهم ··

وأغلقت مجلة الحساب ·· وسكت صوت مفكر ماركسي كانت كلماته تمتلك رنين الاصالة العلمية والفهم العميق للماركسية ·· وللظروف السائدة في مجتمعه معا ···

ولعل هذا يكفي أي مناضل ·· ويزيد ·

---

(١) الاهرام ٢-٦-١٩٢٥ ·
(٢) الاهرام ١-٦-١٩٢٥ ·

المراجع

أ - مراجع عربية :

اسماعيل مظهر — مذهب النشوء والارتقاء
أحمد أبو الخضر منسي — فرح أنطون - دراسة نقدية
توفيق الرافعي — أمين الريحاني-ناشر فلسفةالشرق في بلاد الغرب ·
جمال الدين الافغاني — خاطرات جمال الدين لمحمود باشا المخزومي
د· رفعت السعيد — عصام الدين حفني ناصف
د· رفعت السعيد — نقولا الحداد
د· رفعت السعيد — تاريخ الحركة الاشتراكية في مصر ١٩٠٠ - ١٩٢٥
د· رفعت السعيد — اليسار المصري ١٩٢٥ - ١٩٤٠
د· شبلي شميل — فلسفة النشوء والارتقاء
د· شبلي شميل — الجزء الثاني من مجموعه كتاباته
عباس محمود العقاد — مطالعات في الكتب والحياة
فرح أنطون — الدين والعلم والمال - المدن الثلاث
فرح أنطون — أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس والرجل المريض والاسرائيلية الجميلة فيها

فرح أنطون	السلطان صلاح الدين ومملكة أورشليم
فرح أنطون	مريم وشيشرون
محمد الغثيث	ثورات العرب
د. محمد أنيس	دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩
محمد عمارة	الاعمال الكاملة للامام محمد عبده – الجزء الاول .
محمد عبد الغني حسن	عبد الله فكري
مارون عبود	جدد وقدماء
مناهل الادب العربي	العدد ٩ . مكتبة صادر – بيروت
محمود طاهر العربي	هذا المجتمع الظالم
والتر لاكور	الاتحاد السوفييتي والشرق العربي – ترجمة المكتب التجاري – بيروت
ولي الدين يكن	المعلوم والمجهول – الجزءان الاول والثاني

ب – مراجع أجنبية

Engels - Dialectic of Nature .

G. Ahmed - The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism.

Lenin - Empirio - Criticism and Historical Materialism .

M. Rosental and P. Yudin - Adictionary of Philosophy .

ج – دراسات غير منشورة

كامل عسلي : الاتجاهات التقدمية في الفكر العربي الحديث – رسالة دكتوراه مقدمة الى جامعة برلين الشرقية .

د – دوريـــات

الاخبـار – مجموعة عامي ١٩٠٨ و ١٩٠٩

الاخبـار – (جريدة أخرى) مجموعة عام ١٩٢١ .

الاخبـار – (الحالية) مجموعة عام ١٩٦٣ .

الاهرام – مجموعات الاعوام من ١٩٠٣ حتى ١٩٢٥ .

الاهالي – مجموعة عام ١٩٢١

البـلاغ – مجموعة عام ١٩٢٤

البصـير – مجموعة عام ١٨٩٨

الجامعة – مجموعة الاعوام من ١٨٩٩ حتى ١٩٠٦

الحساب – مجموعة عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٥

المقتطف – مجموعة أعوام ١٨٨٥ ، ١٨٨٦ ، ١٨٨٧

مجلة السيدات والرجال – مجموعة عام ١٩٢٣

الوطـن – مجموعة عام ١٩٠٨

الفهرست

- ١ -

- ٢ -

سلسلة المفكر العربي

الفعالية الثورية في النكبة (طبعة ثانية مزيدة) ٤٥٠
د· نديم البيطار

احاديث في العمل الفدائي ١٢٥
د· منيف الرزاز

نظرات في الملامح الاساسية للمرحلة الراهنة (طبعة ثانية) ٣٠٠
د· الياس فرح

حول استراتيجية الثورة العربية ٣٠٠
محمد المسعود الشابي

ازمة المجتمع العربي المعاصر ١٠٠
مدثر عبد الرحيم الطيب

قضية التعريب في الجزائر ١٥٠
عثمان سعدي

ثورة ١٤ تموز وحقيقة الشيوعيين في العراق ٢٠٠
خلدون ساطع الحصري

الحزب الشيوعي الفرنسي وقضية الجزائر ١٥٠
الياس مرقص

العرب وتجربة المأساة ٢٠٠
صدقي اسماعيل

نحن والشيوعية في الازمة الحاضرة **د. سعدون حمادي**	١٠٠
حول التناقض والممارسة في الثورة الفلسطينية **منير شفيق**	٢٥٠
الثورة الفلسطينية : ابعادها وقضاياها **ناجي علوش**	٢٠٠
في سبيل الحركة العربية الثورية الشاملة **ناجي علوش**	٥٠
الاعتراف باسرائيل ومستقبل الثورة العربية **صلاح المختار**	١٥٠
تأملات في الناصرية **محمد فريد شهدي**	٣٠٠
النقد الذاتي بعد الهزيمة **د. صادق جلال العظم**	
دراسات يسارية في الفكر اليميني **عفيف فراج**	٣٥٠
الطريق الى الوحدة العربية **د. عصمت سيف الدولة**	٢٠٠
وحدة القوى العربية التقدمية (طبعة ثانية) **د. عصمت سيف الدولة**	١٥٠
ازمة الثورة في اليمن الجنوبي **نايف حواتمه**	٤٠٠
كيف نفهم تجربة اليمن الجنوبية الشعبية **اللجنة التنظيمية للجبهة القومية**	٥٥٠
السودان الى اين ؟ **حسن الطاهر زروق**	٢٢٥
الثورة والثورة المضادة في السودان **محمد ابو القاسم حاج حمد**	٢٥٠

حول قيام التنظيم الشعبي لثورة مايو السودانية **د. يوسف محمد بشارة**	١٥٠
من الثورة القومية الى الثورة الاشتراكية **عزيز السيد جاسم**	٢٠٠
التصور البرجوازي الصغير في مواجهة البورجوازية الصغيرة **عزيز السيد جاسم**	١٢٥
موضوعات حول الثقافة والثورة **عزيز السيد جاسم**	٢٢٥
مسائل مرحلية في النضال العربي **عزيز السيد جاسم**	١٠٠٠

هذا الكتاب

ليس هذا الكتـــاب الخطوة الاولى .. وثمة طابور طويل مازال ينتظر من مفكرين ومناضلين شجعـــان وهبوا حياتهم دفاعاً عن فكرة الاشتراكية . وما زالت ذكراهم وكتاباتهم مطوية خلف تجاهل متعمد نسجه مؤرخـو البرجوازية المصرية الذين رأوا تاريخ مصر كله بعين واحدة ، عين طبقتهم .

ولم يكن الاختيار جزافاً ، بل كان محاولة لتـأمل دور المفكرين اللبنانيين في تكوين وتطوير الفكر الاشتراكي في مصر عبر مراحل ثلاث ..

وثمة مفكرين لبنانيين آخرين لعبوا دوراً اقل او اكثر في نفس المعركة ، لكن هذا الاختيار يمثل مراحل هامة في تاريخ مصر والنضال المصري .

دار الطـليعة للطبـاعة والنشـر
بيروت

الثمن : ٤٥٠ ق. ل.
٦٥٠ ق. س.